صفحات من تاريخ تركيا
الاجتماعي والسياسي والإسلامي

تأليف
ماري ملز باتريك
دكتورة في الفلسفة والحقوق والآداب

Bibliotheca Alexandrina
01334258

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

سلاطين بني عثمان

سلاطين بني عثمان

تأليف

ماري ملز باتريك

دكتورة في الفلسفة والحقوق والآداب

الهيئة العامة لمكتبة الأسكندرية

رقم التصنيف :

رقم التسجيل : ١٨٠٧١٢

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف: ٨٣١٦٤٠ - ٨٠٠٦٢١ - ٢٧٣٦٣٦ - ٢٧٥٨٦٧
ص.ب: ١٣/٥٠٤٥١ بيروت - لبنان

مقدمة الناشر

في ذمة التاريخ ! . . .

سلاطين بني عثمان الخمسة . . ما لهم وما عليهم . . أصابوا أم أخطأوا . . .

ومن خلال دورهم في ما أدوه وما لعبوه في تاريخ الشرق ومما له صلة في تاريخ الأمة الإسلامية .

ومن خلال حياتهم الخاصة والعامة ومما سطروه في تاريخ تركيا الاجتماعي والسياسي والإسلامي تقيم نافذة نطل منها على تاريخ أمتنا العريق . وذلك من خلال مذكرات كاتبة امريكية عاشت الواقع التركي سياسياً وإجتماعياً من خلال دورها كرئيسية لكلية استانبول للبنات ، وقامت بوضع كتابها هذا واختارت له موضوعاً : آخر « السلاطين العثمانيون الخمسة » الذين حكموا تركيا . وشرحت حياتهم شرحاً دقيقاً ففضحت حياتهم الخاصة وعلاقاتهم السرية بالأجانب . وتحدثت عن الذين كانوا يخشون منهم النور ويريدون البقاء في الظلام ، والذين كانوا يرغبون الخروج من الأوحال القذرة ولكن الظروف كانت تطمرهم

في الأدران كلما حاولوا وكلما جاهدوا أن يرفعوا رؤوسهم ورؤوس مواطنيهم .

وتطرقت الكاتبة بأسلوبها الخلاب ـ سيما وأنها سيدة حائزة على الدكتوراة في الفلسفة ، ودكتوراة في الشريعة ، •دكتوراة في الآداب ـ إلى تصوير الحوادث المدهشة عن تطور حركة الاصلاح .

ويبحث هذا الكتاب عن فتنة البوسفور وانتحار السلطان عبد العزيز وحكم الجواسيس وعن المرأة التركية المسلمة وعن الأجانب في استانبول . كما يضم فصولاً ضافية عن سليمان الأول ومحمد الثاني ومحمود الثاني وعبد العزيز وعن كثيرين من رجالات الأتراك في ذاك العهد .

وجل الغاية من إعادة نشر هذا الكتاب في طبعة جديدة في هذه الفترة البعيدة عما حصل أيام السلاطين العثمانيين الخمسة هي إعادة تجديده كوثيقة من التاريخ التركي وتاريخ الشرق بصورة عامة .

الناشر

مقدمة

قبل نهاية حكم السلطان عبد العزيز بخمس سنوات اتيت استانبول واقمت فيها وقد اغتبطت حقاً بالفرصة السعيدة التي اتاحت لي زيارة الشرق والوقوف على ما فيه من سحر وجمال ! اغتبطت لان الظروف الطيبة قد ساعدتني على ان اقوم ببعض الخدمة نحو الفتيات الشرقيات عن طريق التهذيب والتثقيف . لقد خلقت وفي نفسي ما فيها من الميل الى المغامرة كما اني ربيت تربية عائلية خاصة جعلت التضحية جزءاً من كياني واحترام الغير قطعة من روحي . ولا اكتم القارىء ان الأجنبي الذي يريد حقيقة ان يؤدي خدمة للشرق ينبغي ان يكون متحليا بهاتين الصفتين قبل ان يكون متحلياً بأي صفة اخرى « الاقتحام والتضحية » .

وقد يكون من المفيد ان اذكر اني قصدت تركيا دون ان اعرف شيئاً عنها وكنت في ذلك الحين فتاة ساذجة في نحو الحادية والعشرين من عمري لا هم لي الا اشباع غريزة حب الاستطلاع المتأصلة في نفسي ، والوقوف على الاسرار الخفية .

ويعلم الله اني قبل سفرتي وغربتي هذه الطويلة لم افارق عائلتي اكثر من اسبوعين ، فليتصور القارىء اذن الى اي حد يكون تأثري وتأثر افراد عائلتي عندما حدثتهم عن السفر لتركيا ! . . . وحيدة . . . ولبلاد اجهلها ويجهلونها الجهل كله ! خرجت من بلدي صيف عام ١٨٧١ واراد والدي ان يودعني فرافقني في السفر بضع ساعات حتى وصلنا الى شيكاغو ثم تركني ! . . .

وكان ذلك قبل ان تندلع النيران فتلتهم الشطر الاكبر من شيكاغو . وما زلت اذكر قذارة الحي التجاري وجمال القصور المحيطة ببحيرة متشيغن ولكني كنت في الواقع في حالة لا تسمح لي بالنظر اذ كانت الدموع تغشي على عيني وتملأ وجهي فلا تدعني ارى شيئاً !

وكانت ساعة وداع مؤلمة حين تحرك القطار ورأيت والدي يستند على عمود خشية ان يسقط وهو يكفكف دموعه ناظراً اليّ نظرة تجمع بين العطف والتشجيع .

وقف القطار وكنت قد ملكت عواطفي وكفكفت دموعي واخذت اتطلع حولي فرأيت الاولاد يحتشدون حوالي العربات يرغبون المسافرين في شراء التوت فتذكرت ايام طفولتي يوم كنت اقضي اوقاتي في قطف (البلوبري) الكبوش ولم يكن في القطار عربة من عربات النوم فهذه العربات المعروفة اليوم بإسم (بولمان) لم يكن قد مر على استعمالها غير ست سنوات فلم تنتشر في القطر كلها . وهبطنا نيويورك

وقد ترك منظرها اعمق الاثر في نفسي فالذي يراها في ذلك الحين ثم يراها اليوم لا يسعه غير الابتسام المقرون بالدهشة لانها لم تكن شيئاً بالنسبة الى ما بلغته في الوقت الحاضر . . . لم تكن غير جزيرة ولم يكن فيها ناطحات السحاب ! بل لم يكن جسر بروكلن المشهور قد شيد بعد .

رست السفينة في ميناء ليفربول ، وقصدنا تواً لندن حيث قضينا اياماً نمتع عيوننا بمناظرها الخلابة .

وكانت الملكة فيكتوريا لا تزال في ربيع عمرها ، وريعان شبابها . ولم يسعدني الحظ بمقابلة جلالتها ، كانت تقيم في قصر بكنجهام ، ولكننا كنا نشنف آذاننا بسماع الانغام الشجية التي كانت تعزفها الموسيقى الملكية كل صباح في قصر سنت جيمس حوالي الساعة الحادية عشرة .

وكانت تلك الايام ايام الاعلان الصارخ ، فكان الباعة ينظفون حناجرهم ويظهرونها عدة مرات في اليوم لتظل اصواتهم دائماً ملء الاذان ، اما مظاهر الفقر فكانت جلية اينما سرنا !

وكم كانت غبطتي عظيمة بزيارة الاماكن التي كثيراً ما قرأت عنها : وستمنستر ابي ، كاتدرائية القديس بولس ، دار البرلمان . . الحصون . . الابراج .

وفي ذات مساء جاءني في اثناء اقامتي بلندن احد الاصدقاء من الذين تعرفت بهم في الباخرة ، وقال لي بحماسة : انه قد حصل بشق الانفس على تذكرتين لحفلة سيخطب فيها (اسبرجن) . وما كدت اسمع كلمة (اسبرجن) حتى بدأت اقذفه بعشرات الاسئلة عن موعد

الحفلة ، وموضوع الخطاب ، ومكان الاجتماع ، واشياء كثيرة كنت قد سمعتها عن مقدرة هذا الخطيب المفوه . . .

وكانت المانيا يومئذ اعظم قوة في كل اوربا وكان بسمارك في اوج مجده يمني الالمان ذوي الاحلام والطموح ، بالسيادة العالمية .

وعبرنا القناة من (دوفر) الى (اوستند) وتقدمنا الى (كولونيا) . . .

ولم تكن في القطار غرف للنوم ولا يتمتع بشيء من الراحة غير ركاب الدرجة الاولى وكنا نحن من ركاب الدرجة الثانية . واتذكر ان القطار قطع المسافة بين اوستند وكولونيا في ١٢ ساعة !

ومن كولونيا سافرنا مباشرة الى فينا . وكانت عاصمة النمسا في ذلك الحين قد وصلت اليها اشعة المدنية ولكن لم يطرأ عليها تبديلات جوهرية كما حدث في نيويورك ولندن . وكانت تركيا تتحكم بممالك البحر الابيض المتوسط الشرقية ولم تكن هناك مواصلات بالسكك الحديدية تربط استنبول بالمدن الاخرى ، ولهذا كان يستحيل الوصول الى العاصمة التركية بالقطار قبل سنة ١٨٧٢ .

ودخلنا استنبول من جهة الشرق . وكان اول شيء لفت نظري مآذن استنبول وقبابها . . . وكان قلبي يرقص طرباً والسفينة تتبختر كالعروس الحسناء في بحر مرمره .

ورست الباخرة عند (كافاك) في مدخل البسفور وقدم لنا طعام الصباح البسيط الذي يدل على منتهى الشح فلم يكن غير قهوة مرة مع كسرة من الخبز وهنا انتهت مهمة الشركة التي تعهدت بنقلنا فلم نلق منها جزءاً من الف مما يلقاه الناس اليوم من شركات التسفير الكبرى من رفاهية ونعيم موفور !

وكان علينا ان ننتظر الساعات الطويلة حتى تسمح الحكومة التركية لسفينتنا بالمرور في البسفور والوصول الى القرن الذهبي . . . فاضطررنا للانتظار وماذا عسانا أن نفعل ؟ . . . كنا نطلب من الله ان يلهمنا الصبر !

اما قرية كافاك فهي مشهورة بتينها وعنبها ومع اننا وصلنا في فصل هذه الفاكهة فلم يتقدم احد بشيء منها لنشتريه !

وشاهدنا على التلال القريبة خرائب واطلالاً هي بقايا قلعة (كنوز) التي كانت في الواقع بقايا قلعة تركية قديمة بناها محمد الفاتح نفسه .

ورأينا فوق القلعة معبداً اغريقياً قديماً يقول عنه هيرودتس المؤرخ المشهور ان داريوس قد اضطر امام هذا السحر ان يتريث ليملأ عينيه منه ومن جماله على الرغم من كونه كان في حالة لا تساعد على الاكتراث للمناظر الجميلة والتمتع بما فيها من سحر وفتنة !

وعندما يقف الانسان على هذا المكان المرتفع يستطيع رؤية البحر الاسود والبسفور وتلال آسيا الصغرى القاصية .

ولم نفهم قوة الشعار التركي المعروف (ياواش ياواش) اي رويداً رويداً او مهلاً مهلاً الا عندما وجدناهم يجبروننا على التريث الطويل في (كافاك) .

هذا هو شعار الاتراك الذي كان سائداً في ذلك العهد وتلاشى اليوم اذ قضى عليه الغازي مصطفى كمال باشا بعد ان ولدت تركيا ولادة جديدة وبعد ان خلقت الجمهورية التركية الحديثة .

بقينا من الفجر حتى الساعة الرابعة بعد الظهر . . . ننتظر . . .

وننتظر . ثم رفع العلم التركي على السفينـة ، وآن لها ان تتحـرك . . .
وانْ تتبختر في البوسفور .

واستـانبول في الاصـل مدينـة اغريقيـة معـروف بـاسم بيـزانتيـوم (بيزنطية) .

وفي سنـة ٣٣٠ ميلادية ابـدل قسـطنـطين الاكبـر اسمهـا فجعله (القسطنطينيه) واختارهـا قاعـدة لملكه واننـا نتنبأ بانه لن يمضي طويل وقت حتى تلقب باسم آخر

ولكن سـواء استبدل اسمهـا او بقي كـما هــو فستـظل الى الابــد (ملكة المدن) وعروس المدائن الشرقية .

والذين يزورون هذه المدينة الفاتنـة يشعرون انها تمتـاز عن المدائن الشـرقية بميـزات شتى ويعجبون بجمـال مياهها عنـدمـا تنعكس عليهـا اشعـة الشمس وعندمـا يسعدهم الـزمن فيقضون السـاعات يستمتعـون ويتنـاجون في ضـوء القمر ! وان فتنـة البسفور لا تجـد لها مثيـلاً الا فتنة النيل ! . . .

واستـانبـول ليست أوروبية بحتـة وليست كلهــا من صميم آسيا ولكنها ترتمي في احضان أوروبا وآسيا معاً .

وستـظل استنبــول الى الابد كـما كانت في المـاضي ، وكما هي في الحاضر مدينة لا قـومية لهـا ولا صبغة دوليـة شائعـة للجميع ، وهـذا لا يرضيك ولا يـرضيني اذا كنا من القـوميين ولكنـه يرضيني ويـرضيك اذا كنا من انصار العـالمية والـدولية وانـك لتستطيـع ان تراهن وانت مـوقن من كسب الـرهان ، ان اي سـائح يهبط من اي جـزء من انحـاء العـالم لا بد ان يجد من يحادثه بلغته .

وما زلت اذكر هذه الجملة التي سمعتها من زائر : (واني اعد هذه المدينة استنبول احق بالرؤية من ايطاليا كلها) .

وكانت الاستانة في تلك الايام ثالث مدينة من حيث الكبر والاتساع في كل اوربا وكان يزيد عدد نفوسها عن مليون و ١٧٥ الفاً .

والمسافر عندما يدخل الميناء يستولي عليه العجب والذهول عندما يرى القرن الذهبي يفتح دفعة واحدة باسرع من لمح البصر .

الفصل الاول

السلطان عبد العزيز

كان السلطان عبد العزيز جديراً بالاعتبار اذا راعينا الزمن الذي عاش فيه ويمكن ان يقال انه من السلاطين الذين كانوا يعملون على اعلاء شيأن بلادهم وانه كان يتمتع بكل مظاهر العظمة الشرقية التي تخوله اياها تقاليد الاسرة المالكة منذ ايام سليمان القانوني .

وكان السلطان عبد العزيز يسكن قصره (ضولمه باغجه) وهو من افخم القصور على شواطىء البسفور وقد زار أوروبا الغربية والوسطى واقام مدة في فرنسا وانكلترا ونال وسام رباط الساق من الملكة فيكتوريا وهو اسمى وسام للفرسان .

وقد ادخل السلطان عبد العزيز في اواخر ايام حكمه اصلاحات ادارية عديدة وعلى الاخص في الجيش والبحرية ولا بدع فقد كانت الروح الحربية من اهم مظاهر ذلك العصر ، من بين اصلاحاته الهامة عنايته الكبرى بتحسين طرق المواصلات وتعبيد الطرق العامة .

وعندما جئت الى تركيا كان قد تم تعبيد طريق يبتدىء من طرابزون على الساحل الجنوبي للبحر الاسود الى سهول ارضروم

لمنبسطة والممتدة نحواً من ١٥٠ ميلاً من الجنوب الشرقي في ظلال جبال ارارات .

وكان محط رحالنا مدينة ارضروم التي تعلو عن سطح البحر اكثر من ستة آلاف قدم .

وبعد ان اقمنا اياماً قليلة في استنبول ابحرنا الى طرابزون على احدى بواخر شركة (لويد لاين) النمسوية وكانت تختلف كل الاختلاف عن الباخرة الاخرى التي جئنا فيها من اميركا وهي اصغر حجماً ، وكان الطعام الذي يقدم لنا شرقياً ومعظم المسافرين من الاسيويين .

وكانت حركة السفر بين استنبول وطرابزون عظيمة لهذا وجدت على ظهر الباخرة عدداً كبيراً من الاتراك البارزين وهم يحجبون (حريمهم) عن الرجال ولا يبيحون لهن الجلوس معهم على موائد الطعام وان كانوا قد اباحوا للخدم ان يدخلوا غرف نومهن في الباخرة يحملون لهن الطعام ! . . . ولم يقع نظرنا عليهن الا عندما رست لباخرة في طرابزون . ومما زاد في فتنتهن ارتداؤهن الثياب الحريرية ، إهية الالوان ، والبراقع البيضاء التي تغطي الوجه ولكن لا تخفي سلامحه وقسماته والارجح ان هؤلاء الفاتنات لم يكن يعرفن شيئاً من لقراءة او الكتابة بل كان العلم نفسه يقلل من قيمة المرأة في ذلك لزمن المظلم ، في نظر الازواج لانهم كانوا هم انفسهم لا يودون ارهاق انفسهم بالدراسة ويحملوها عبء البحث والتحصيل لعلمي ! . . . وكان كل مناهم ان يتمتعوا بالاجسام البضة . . وكانت لتركية لا تعني بشيء غير جسمها وقد تكون هذه العناية الفائقة الجسم من مقدمة الاسباب التي اذاعت للتركية شهرة عالمية في الجمال

فاصبح من النادر ان تجد امرأة تركية غير فاتنة واصبحت كلمة (التركية) تعني (الفاتنة) .

* * *

بعد ثلاثة ايام قضيناها في البحر الاسود وصلنا الى طرابزون فنزلنا في نزل يخلو من الاثاث اما نظافته فقضية يرتاب فيها .

وكان هذا النزل بناء موحشاً قاحلاً لا يجد فيه المنهوك القوى شيئاً من الراحة الا بعد ان يجلب الفراش بنفسه وفي الغالب يحضره معه وينقله الى اي مكان يقصده والمسافر يطبخ طعامه بيده في الاواني التي يجلبها معه على ظهر (الكديش) ! وجاء احد الاصدقاء من ارضروم يستقبلني واحضر معه جواداً مسرجاً كانت تركبه زوجته عند الحاجة لان الخيول المستأجرة لم تكن في اغلب الاحيان صالحة لمثل هذه السفرة الشاقة ثم فرش لي غرفة في الخان .

وتناولنا الطعام في مطعم يوناني وكانت الاغلبية الساحقة من سكان طرابزون يونان . وتعد طرابزون من ابدع مدن العالم وهي تختلف عن استنبول فان شوارعها اضيق وسكانها ريفيون .

دخلنا المطعم اليوناني وجلسنا الى مائدة صغيرة مربعة تحيط بها الكراسي البسيطة ، ولم يكن يخيل لي ان مطعماً من المطاعم يفتقر للكراسي ولهذا كان الاتيان بها امراً عادياً في نظري ولكن عندما توغلت شرقاً ادركت ان الكراسي نادرة في مطاعم البلدان الاخرى .

اما الطعام الذي قدم لنا فكان مؤلفاً من (يخنة) وبقول مطبوخة مع لحم الحمل ، وخضر مختلفة في مقدمتها البندورة التي كانت تحشر في كل لون من الوان الطعام وقد اكثروا فيها من الثوم

ووضعوا الطعام في اطباق كبيرة وسط المائدة . وقدموا لكل منا ملعقة ضخمة فطلبنا اطباقاً خاصة وابينا ان نتناول الطعام من طبق واحد فترددوا طويلاً ثم جلبوا لنا بعض ما طلبنا . . . وسرعان ما ادركنا ان طرابزون مدينة متمدنة بالنسبة الى غيرها وكيف لا تكون متمدنة وقد وجدنا فيها كراسي واطباقاً خاصة لكل آكل ؟!

وامتطينا الجياد في الصباح لنتم رحلتنا ولم اكن في حياتي امتطيت جواداً ومما ضاعف عذابي ان احد المسافرين قد اشار علينا باختيار الطريق الجبلي القديم لنتمتع برؤية المناظر الخلابة . والطريق وعر ، شديد الانحدار ، واستطيع ان اقول ان الفضل في ادخال السكك الحديدية عائد الى السلطان عبد العزيز وكان رجاله في ذلك الحين يستعملون العربات في الطريق المعبد الجديد .

وطرابزون من الموانىء المهمة لتجارة الشرق وكانت تستغرق الرحلة منها الى ارضروم نحواً من اسبوع وكنا نقضي الليالي في الخانات .

اما الخبز في داخل تركيا فكان اشبه بالشراك رقيقاً جداً يخبزونه ويحمرونه وينشفونه لدرجة انه يقوم مقام السكاكين والشوَاك والملاعق .

وعندما وقع نظري لاول وهلة على هذا الرقاق الناشف مطروحاً على ارض غير نظيفة شعرت ان سفري يجب ان ينتهي وان الافضل ان لا اتوغل اكثر مما توغلت ولكن للسفر على ظهور الخيل لذة لا تعادلها لذة وعلى الاخص وسط الجبال فهناك ينسى الانسان الاتعاب التي يصادفها والمنغصات الزهيدة التي تعكر عليه مزاجه وهناءه واخيراً . . . وصلنا الى ارضروم ووجدنا الاسرة النظيفة المريحة . والحمامات المرتبة النظيفة وسائر اسباب الرفاهية .

شعرت ان حياتي قد تبدلت تبدلاً تاماً فجائياً فبعد ان كنت انعم في اميركا بالحرية اصبحت اعيش في جزء منعزل ناءٍ من الشرق الادنى ولا بد ان اتقيد بعدة قيود ثقيلة !

شعرت اني في عالم جديد يعيش فيه قوم تختلف ارائهم وارائي ! اناس انا غريبة عنهم وهم غرباء عني ! . . . هؤلاء هم الاتراك الذين حاولت ان افهمهم فلم استطع الا بعد ان عاشرتهم العمر كله وربما اكون مخدوعة بل ربما اكون غير فاهمة حقيقتهم حتى بعد ان قضيت بينهم ربيع عمري وزهرة شبابي !

الفصل الثاني

اما ارضروم فمدينة يزيد عدد سكانها على ستين الفاً ومزدحمة ازدحاماً كبيراً ومحاطة بالاسوار . اما دورها فكانت مبنية من الآجر وشيء من الخشب سقوفها مسطحة ومغطاة بطبقة رقيقة من الطين والشوارع ضيقة ومظلمة .

اشتريت عندما وصلت ، جواداً صغيراً دفعت فيه خمسة عشر دولاراً اسميته (روبين) وقد اولعت به ولعاً شديداً فاصبح صديقي العزيز في هذا القصر النائي وجلست ذات ليلة افكر في الحوادث العالمية . . . كانت قناة السويس لم تفتح الا منذ سنتين ولم تكن قد اثرت في طرق المواصلات تأثيراً محسوساً .

وكان وادي العراق قلب تجارة الشرق الادنى شأنه في القرن الخامس عشر وكانت السفن الشراعية الشرقية تحمل كنوز الهند الى البصرة بعد ان تمر في الخليج الفارسي ثم تشحن في القوارب البديعة الى بغداد الساحرة مارة في مياه الدجلة . وكانت ارضروم ملتقى طرق قوافل عديدة قديمة .

وعلى الرغم من ضيق اسواق هذه المدينة ، وعدم رصف شوارعها ، وعلى الرغم من الروائح الكريهة التي تنبعث من بعض

الفصل الثاني

اما ارضروم فمدينة يزيد عدد سكانها على ستين الفاً ومزدحمة ازدحاماً كبيراً ومحاطة بالاسوار . اما دورها فكانت مبنية من الآجر وشيء من الخشب سقوفها مسطحة ومغطاة بطبقة رقيقة من الطين والشوارع ضيقة ومظلمة .

اشتريت عندما وصلت ، جواداً صغيراً دفعت فيه خمسة عشر دولاراً اسميته (روبين) وقد اولعت به ولعاً شديداً فاصبح صديقي العزيز في هذا القصر النائي وجلست ذات ليلة افكر في الحوادث العالمية . . . كانت قناة السويس لم تفتح الا منذ سنتين ولم تكن قد اثرت في طرق المواصلات تأثيراً محسوساً .

وكان وادي العراق قلب تجارة الشرق الادنى شأنه في القرن الخامس عشر وكانت السفن الشراعية الشرقية تحمل كنوز الهند الى البصرة بعد ان تمر في الخليج الفارسي ثم تشحن في القوارب البديعة الى بغداد الساحرة مارة في مياه الدجلة . وكانت ارضروم ملتقى طرق قوافل عديدة قديمة .

وعلى الرغم من ضيق اسواق هذه المدينة ، وعدم رصف شوارعها ، وعلى الرغم من الروائح الكريهة التي تنبعث من بعض

اماكنها ، وتضطرنا الى سد انوفنا وجدت انها تمتاز حقيقة بـاشياء غـريبة في بابها !

اجل ، كانت هناك اشياء نـادرة مخبوءة في المخـازن المظلمـة كثيرة الغبـار . واول شيء سـررت بـه لغـرابتـه جلوس البـائـع عـلى الارض مقـرفصاً ! . . . ولا اخـالها الا جلسـة مريحـة والا لما رغب فيهـا الباعـة الذين يبقون الساعات الطويله على هذه الجلسة الغـريبة . ولكن عنـدما يـدخل احـد الزبـائن يطيلون التفـرس في وجهه فـاذا توسمـوا فيـه انـه (زبـون شراء) قفـزوا من اماكنهم خفـافاً ونهضـوا في نشاط عجيب الى صناديقهم المنشورة على الرفـوف فتزعـوها من امـاكنها بقـوة وعنف حتى ان هـذه التحف الثمينـة تبعـثر احيـانـاً عـلى الارض . امـا الصنـاديق فكانت تحوي اشيـاء غريبـة كخشب الصندل ، وقصبـات التدخـين من الكهرمان ، والخرز الجميل الالوان ، وانواع الحلي المتعددة الاشكال .

وكـان في ارضروم شـارع خـاص لبيـع الحـلي الفضيـة المصنـوعـة بـالايدي فكنت مثـلاً   ـ حـزمة من الفضـة الخالصـة مصنـوعـة من حلقـات متسلسلة تسلسلاً غـريباً ، ومثبتـة من الامام بلعبـة على شكـل خنجر وكلها مزخرفة ومطعمة تطعيماً يدل على الدقة المتناهية .

وكـانت هذه الصنـاديق تحتـوي عـلى المقـادير الكبيـرة من الآنيـة الفضيـة كما ان بعض الشـوارع تكاد تكـون خاصـة بالمخـازن التي تبيـع الاشيـاء النحاسية وعـلى الاخص الاوعيـة والاواني والـزهـريات للورد والرياحين والاطباق والصواني والفناجين والمناقل والكوانـين البديعـة التي لا يمكن في الشرق الاستغناء عنها .

وكـان من بـين الاشيـاء التي راقت نـاظـري، وشـرحت صـدري الجوخ الجميل الذي كان الزعماء الاكراد يصنعون منـه ثيابهم . سـررت

بالوانه الزاهية اللامعة واتذكر ان هؤلاء الزعماء كانوا يختارون اللونين الاحمر القرمزي والازرق الفاتح وكان هذا الجوخ يصنع من انسجة ناعمة تصقل وتصبغ بالالوان الزاهية ، ومن الممكن ان يدوم مدى الحياة بل اطول من عمر الانسان ! . . .

وكان الزعيم الذي يرتدي مثل هذه الثياب لا يستغني عن السيوف والخناجر وكانت الاسلحة من الحجوم كلها فالزعيم منهم يختار لسلاحه اجمل غمد ، وقد ينفق على الغمد اكثر مما ينفق على السلاح ذاته فيطعمه بالفضة والذهب ، ومن الاشياء النادرة ايضاً السجاد العجمي فهو يمتاز عن سجاد العالم كله بالوانه التي لا تمحى يمتاز بنعومته ودقة حبكه وصنعه ، هذه السجاجيد التي كانت تعرض علي للشراء فاتصورها تبقى الى الازل واتمنى لو املك المال الوفير لاهدي منها العدد الكبير لاهلي واصدقائي في اميركا ، هذه السجاجيد . . . بل هذه التحف الثمينة كان يخيل لي انها لا تبلى ولا تفنى وانه اذا كانت تبلى في الغرب فانها لا تبلى في الشرق ! اتدري لماذا ؟ لان الشرقي من عادته ان لا يمر على هذا السجاد الثمين الا بعد ان يخلع حذاءه فهو احرص منا على هذه التحف . وكم كان ينشرح صدري عندما اوفق الى شراء سجادة او بعض التحف الغالية وارسلها الى اهلي او أقاربي او اصدقائي وعلى الاخص التحف التي ليس لها نظير في اميركا او التي اذا وجدت فاثمانها فاحشة .

كانوا يقولون لي اني ابتاع ا ' سياء باثمان غالية جداً مع اني كنت اتصورها رخيصة كل الرخص عندما اتصور اني ابتاعها من مخزن من المخازن الاميركية الكبرى وكان الطرد الذي ارسله لا يصل الا بعد اشهر ولكن على الرغم من تأخره الطويل كان يثير حركة غير عاديةفي

العائلة . . . اجل ، كان يدفع افراد الاسرة كلهم الى الانشراح والغبطة بل كانوا يرسلون الي يداعبونني ويقولون انهم يودون بقائي في الشرق لاتحفهم بتحف الشرق !

كانت اغلبية السكان من الاتراك وكانت الجاليات الكبيرة من اليونانيين تقطن جنوب البحر الاسود . وكان الارمن مبعثرين في كل انحاء تركيا

اما اليهود فكانوا يختارون المدن الكبرى ويفضلونها على القرى وكان لهم فيها اكبر نفوذ .

على انه كان هناك جاليات من العرب والاكراد والروس وفي ارضروم جماعة صغيرة من الانكليز يتصلون بالقنصلية الانكليزية التي كانت تعد ممثلة لبريطانيا العظمى في كردستان كلها .

وكان القنصل الانكليزي وزوجته يعاملان الاميركان معاملة خاصة وبلغ من فرط حفاوة زوجة القنصل بي ان قدمت لي بيانو !

وكانت دارنا قريبة من دار قنصل فارس وتعودت الوقوف على سطح الدار الرحيب اتطلع الى نسائه ، واراقبهن مراقبة دقيقة فتبين لي ان هؤلاء النسوة يختلفن في مظهرهن الخارجي عن النساء التركيات اللواتي رأيتهن في استنبول وعلى ظهر السفينة التي حملتنا في مياه البحر الاسود فالتركيات اللواتي وقع نظري عليهن وان كن غير متعلمات ومع هذا كانت لهن جاذبية خاصة ترغب الانسان في اطالة النظر اليهن بل كنت اشتهي ان يتاح لي التقرب منهن ولكني عندما رأيت العجميات في ارضروم شعرت على الفور اني ارى نساء قمن من القبور بعد رقاد اجيال طويلة .

والـواقع ان القنصـل ذاته لم يحسن اختيـار حـريمـه فـانـه كـان في العجم من هن ارقى من نسـائه واوفى جمـالاً ولا ادري مـا الـذي حببـه فيهن . وسواء احسن القنصل اختيـار هذا الجيش الصغـير من النساء او لم يحسن فالنساء العجميات ما زلن يعشن في عزلة تامة عن الرجال .

اما العالم باللغات (فيلو لـوجيست) فكان يجـد موضـع آمالـه في تـركيا طـوال العصور الاربعـة والنصف الماضيـة اذ يستطيـع ان يـدرس وكان في مقدوره ان يطبق ما يدرسه . كان اذن يجد (المعـامل) لاجـراء تجاربه اللغوية تحيط به عن الشمال وعن اليمين .

ولكن تـركيا قـديمـاً لم تكن جنة للقـروي المسكـين الـذي يجهـل القـراءة ولا يجيد التكلم بلغتـه ! . . . وكان في الـواقع لا يفهم ايـة لغـة اخـرى على الاطـلاق ولما وجـدت نفسي في عزلـة تـامـة رأيت ان خـير وسيلة لصـرف الـوقت ان اعكف عـلى دراسـة اللغـــات وكنت اجـد في دراستها مصدر سعادتي وقد اولعت باللغات قبل تركي لاميركا .

وكان والدي يطالع فصلاً من الكتاب المقـدس كل صبـاح باللغـة الانكليزية ثم نقرأه معاً باليونـانية والـلاتينية والفـرنسية والالمـانية . وان جسمي يرتجف كلما تذكرت الاخطاء الشنيعة التي كنا نـرتكبها خصـوصاً في اللفظ .

واستطيع ان اؤكـد ان الانسان لا يجـد لذة في الحيـاة تعادل لـذته عندما يخـاطب الاجانب بلغـاتهم الاصلية ، كـان حديثي مـع الاجانب يثيـرني وان الانسـان اذا حق لـه ان يحـزن عـلى شيء في الحيـاة فليس اجدى بالحزن من قصرها هذا القصـر الذي لا يسمـح للانسـان ان يلم كل الالمام بعدة لغات .

وكـان كثـير من الاعجـام في ارضـروم يحتفلون بـذكـرى مـوت

الحسين ويتخلل هذا الاحتفال مظاهر عديدة تدل على شدة حماسهم وحبهم لصاحب الذكرى

والحسن والحسين هما ولدا الامام علي والسيدة فاطمة ابنة النبي محمد (صلعم) وهذه الاحتفالات المقدسة تجري عادة في العاشر من شهر محرم ، اي في اليوم الذي سقط فيه الحسين شهيداً في ساحة الوغى في كربلاء .

وتصرف بلاد العجم هذا الشهر في اقامة المآتم لذكرى هذين البطلين العظيمين وقد مر الآن على وفاتهما اكثر من الف سنة . ولكن الموالي ـ شيوخ المسلمين في العجم ـ ما زالوا يحتفلون بهذه الذكرى ويذكرون هذه المأساة .

وكانت المواكب تطوف شوارع ارضروم الكبرى وتطيل الوقوف امام القنصلية العجمية المجاورة لدارنا وكنا نرى ما يحدث في تلك السنين مما لا اثر له اليوم بعد ان تطورت العقليات فبدلت في الطقوس بعض التبديل .

* * *

كان القرويون الاتراك في الارياف يجهلون القراءة ولا يعرفون احياناً حتى اسم الباديشاه (السلطان) بل كانوا لا يفكرون كثيراً في سلاطينهم فكان الباديشاه اشبه شيء بقوة خفية بعيدة ترسل جباة الضرائب وتختارهم من الاشخاص الذين اشتهروا بالقسوة ولم تعرف الشفقة طريقاً الى قلوبهم .

وكانت عقولهم لا تتصور الحكومة الا كضابط يحمل سيفاً ويحضر كل سنة ليغتصب حصة كبيرة من الغلال التي كان لها اعظم قيمة في

تلك الايام لانه لم يكن من السهل زرع الاراضي كما ان حصاد هذه الغلال كان من اشق الامور .

وكان الريفيون يتصورون الحكومة ايضاً ضابطاً يمتطي جواداً يقصد دورهم وهو يحمل البندقية في يده ويأمرهم بتسليم اولادهم ليخدموا الجيش في بلاد قاصية فيضطرون للخضوع وكثيراً ما كان افلاذ اكبادهم يذهبون ولا يعودون .

* * *

وكان الحكام في المدن من الاذكياء عادة ولكني اشك كثيراً فيما اذا كانوا يعرفون شيئاً من دخائل حياة السلطان عبد العزيز او يطلعون على سياسته ومع ذلك فقد كنا في زمن يسوده السلام والتسامح وكان الناس يقاسون من رداءة الطقس اكثر مما يقاسون من اي عامل آخر .

اجل ، ان افتقار الاتراك للتعليم وجهلهم اساليب الزراعة وفقد طرق المواصلات السهلة المريحة الرخيصة قد ضاعفت بلا شك ، الضيق الذي كان يعاني منه الاتراك ما يعانون ، ولكن هذه العوامل وغيرها لم تعد شيئاً بجانب العوامل الجوية .

* * *

كانت وفرة المحاصيل وكثرة الفاكهة والازهار في غرب الاناضول تبعث بعض الرفاهة في حياة الاناضوليين ولكن في ارضروم لا يجد السكان في الشتاء غير الثلوج المتراكمة .

وقد يتراكم الثلج جبالاً صغيرة تسد الطرق فلا نجد غير دروب ضيقة نمر فيها الى دورنا بعد ان نتلمس الجدران خشية الانزلاق .

واحيانـاً كـان الـزئبق في البـارومتـرات يهبط الى درجـة ٢٥ تحت الصفر فهرنهيت

* * *

وشهد الناس الذين عاشـوا في العصر التـالي لحرب القـرم في سنة ١٨٤٥ شيئـاً من التقـدم المحـدود في اقليم ارارات عـلى الـرغم من اشتداد قر الشتاء .

وكـان ذلـك العصـر اطـول زمن في تـاريخهـا تمتعت فيـه تـركيـا بالسكينة وقد استمر اكثر من عشرين سنة .

وكانت ارضروم مركزاً حربياً قـوياً وفيهـا عدد كبـير من الموظفـين الاتراك . واني لا ازال اذكر صديقاً من اصدقائي الاتـراك كان طبيبـاً في الجيش وقد استعنت به في تعلم اللغة التركية .

واجمل بناء في المدينة هـو المدرسة التي يتعلم فيها رجال يتأهبـون للدكتوراه في الشريعـة الاسلاميـة وقد بنـاها السـلاجقة في القـرن الثاني عشر وهي مشهورة بمدخلها المزخرف اجمل زخرفة ومأذنتيها المتشابهتين .

وكـانت ارضروم تسمى (ثيـودوسيبوليس) ويـرجع عمـرها عـلى اقـل تقدير الى القـرن الخـامس وربمـا اسست قبـل ذلـك . اما الجبـال المحيطة بها فعلى ارتفاع عشرة آلاف قدم .

وعنـد (جسن) التي تقع في شـرق ارضروم عسكـر (ارطغـرل) مـع عـدد من المقـاتلين الـذين فـروا من آسيـا الـوسـطى قبـل حمـلات المغول .

وارطغـرل هـذا هـو والـد عثمـان الاول مؤسس الامبـراطـورية

العثمانية ، واول من نادى بنفسه سلطاناً (١٢٨٨ ـ ١٣٢٦) وقد استطاع هؤلاء الغزاة بفضل ثباتهم وقوتهم ان يغزوا آسيا الصغرى وغيرها . ويجب ان لا ننسى ان الظروف خدمتهم كثيراً .

وجاء اورخان بن عثمان الاول فكون (الانكشارية) جيش الارقاء لخدمة السلاطين الذين جاءوا من بعده .

واهم حدث تاريخي وقع في ارضروم في تاريخها الحديث ، المؤتمر الذي عقد في الثالث والعشرين من شهر تموز سنة ١٩١٩ وكان يقصد به جمع شمل الزعماء لتوحيد كلمتهم وتنظيم جهودهم وفي هذا الاجتماع وضعت نواة الميثاق القومي واسسه

الفصل الثالث

وكان الشيء الذي ادهشني اكثر من غيره في بيئتي الجديدة انقسام الشعب الى عدة طوائف انقساماً جلياً .

وقد تعودت ان اعيش في مملكة لا يتكلم اهلها الا لغة واحدة ، وتحت ظلال حكومة واحدة بعيدة كل البعد عن التعصب الديني .

ولكن جئت الى تركيا فكنت اسمع من هذه انها تتكلم اليونانية لانها ارثوذكسية ! وتلك تتكلم التركية لانها مسلمة ، واخرى الارمنية لانها تنتمي للكنيسة الارمنية .

اما الغرباء فكانت حياتهم تدعو الى دهشة مضاعفة فبدلا من ان يتكاتفوا كما هو الحال في الممالك الاخرى وجدتهم يعيشون بمعزل تام كأن هناك حاجزاً غير منظور يفصل بعضهم عن بعض .

ولا اقصد من حديثي هذا انهم كانوا يكرهون بعضهم بعضاً ولكن الذي اقوله ان كل جنس كان يتجاهل الاجناس الاخرى تجاهلاً تاماً .

كانت العائلات المختلفة الجنسية لا تتخالط ، ولكني فهمت فيما بعد الاسباب التاريخية التي دعت الى هذا السلوك الذي يعد ابعد

شيء عن الروح الاجتماعية .

* * *

اما السلطان محمد الثاني فهو شخصية من اغرب الشخصيات في التاريخ فهو بطبيعه شرقي مستبد لا يعرف شيئاً عن الروح الديمقراطية والمثل الاعلى الخيالي (ايديااليزم) ورجل هذه اهواؤه الشخصية لا يطمئن الانسان على رأسه اذا عاشره او اشتغل معه فهو بكلمة واحدة قد يقطع الاعناق .

ولكنه من الناحية الاخرى رجل متعلم مفكر حريص . بل الادهى من هذا كله انه كان له نفسية الشاعر ويعترف باهمية العلوم والتربية .

وكان يتحدث بخمس لغات وبينما هو يدبر الامور بنفسه كان يظهر حذقاً كبيراً وادارة طيبة في تسيير مقدرات البلاد .

وكان جيشه مدرباً ومجهزاً احسن تجهيز وهو فوق هذا كان يفكر في مصالح شعبه اكثر مما كان يفكر اي سلطان آخر فقد بنى المساجد والمستشفيات والكليات الاسلامية . وهو اول سلطان دفن في استنبول في جامعه المشهور (جامع الفاتح) الذي كان قد بناه في عهده .

والواقع ان السلطان محمد الفاتح قد اظهر تسامحاً عظيماً مع المسيحيين ولا ننسى الظروف التي عاش فيها ، اذ ليس ادل على تسامحه مع المسيحيين من قوله هذه الجملة بحروفها :

(اني اقسم بالمساجد التي شيدتها انكم سترون كنيسة تشيد لكم ليجتمع شعبكم للصلاة والتضرع لله كما يفعل المسلمون)

هذه هي الروح الطيبة التي اظهرها محمد الفاتح للمسيحيين . يقول السلطان هذا القول وهو الرأس الاعلى للمسلمين .

وكان لكل ملة في ذلك الحين رئيس ديني لا يخاطب غير حكومة السلطان ذاتها مباشرة ولكل ملة من هذه الملل مدارسها الخاصة ، واماكن للعبادة واديرة كما انه كان لا يتدخل احد في ماليتها وكانت تطلق لهم الحرية في تكلم اللغة التي يريدونها .

وكان البطاركة وكبار الحاخامين كالامراء يعيشون في قصور فخمة لا فرق بينها وبين قصور الامراء ولكل ملة من هذه الملل محاكم خاصة لا تستعمل فيها الا لغاتها الاصلية . وكانت هناك محاكم اخرى تستعمل فيها التركية ويمكن ان ترفع القضايا اليها اذا لم يرضَ المتهمون باحكام المحاكم الكنسية . ولهذا كان من الطبيعي ان نجد نوعين من الضرائب :

١ ـ الضرائب التي تجبيها الحكومة المركزية .

٢ ـ الضرائب التي يجبيها الرؤساء الروحيون .

اما اهم هذه الطوائف اليونانية وهي تسمى ملة الروم . وكان بطريرك الروم يتحكم كما يشاء في رعيته وظل هذا النوع من الحكم سائداً بين اليونانيين وغير اليونانيين خمسة قرون كاملة .

اما الملل الاخرى غير الاسلامية التي كانت تتقدم تقدماً تدريجياً فهي طوائف الارمن والبلغار والصرب ورومانيا .

وكان رئيس الملل الرومانية الكاثوليكية ممثل البابا الخاص .

وعندما احتل محمد الفاتح استنبول في سنة ١٤٥٣ كانت هذه المدينة تعد من اهم المدن المتمدنة في بلاد العالم .

وكانت استنبول مصونة تحيط بها ثلاثة اسوار بديعة الشكل جداً ، وهذه الاسوار ما تزال باقية الى يومنا الحاضر .

وكان فيها كنائس عديدة في منتهى الروعة والجمال وفي مقدمتها كنيسة القديسة صوفيا وكان فيها عدد كبير من دور الكتب ، والمتاحف التي كان يقبل عليها الاثريون للدراسة والبحث .

وكان في استنبول جامعة من اهم جامعات العالم ، اما عدد سكان استنبول فكان قد انخفض انخفاضاً عظيما فلم يعد فيها غير ٨٠ الفا .

ومع ان هذه المدينة كانت اخذت في الضعف والانخفاض الا ان مواردها الدفينة الكامنة كانت تعد ثروة كبيرة لو استغلت الاستغلال الحقيقي لا من السكان من الفقر بل اصبحوا في سعة من العيش .

وظلت الجالية اليونانية الكبيرة بعد فتح استنبول منصرفة الى شؤونها الخاصة ولكنها اصبحت تحت نوع من الرقابة فكانت المدارس اليونانية وفي طليعتها الجامعة الاغريقيه تلقي دروسها بانتظام ، بعد ان هلك من المتعلمين من هلك وقت سقوط المدينة وهرب منهم من هرب الى ايطاليا .

وكان لهؤلاء الفارين اكبر الفضل في انعاش الحركة الاصلاحية في ايطاليا وكانت القوانين اليونانية هي المتبعة في المحاكم اليونانية وكان القانون اليوناني مشتقاً من القوانين التي وضعها جوستنيان .

وكانت تجارة استنبول في ايدي اليونانيين عدة قرون لان الفاتحين كانوا يحتقرون التجارة ولا يريدون كسب المال الا عن طريق القتال

والسيف ولهذا ترى التجارة قد انتقلت الى ايدي اليونان واليهود والارمن الذين وجدوا انفسهم احراراً لا ينافسهم في التجارة منافس من الاتراك الفاتحين !

وكانت في تلك الايام مستعمرات اجنبية يسكنها اقوام جاؤا من البندقية وفرنسا وهولندا وانكلترا وكان الذي يبت في قضاياهم القناصل والسفراء على نفس النمط الذي يتبعه القادة الروحيون الذين يتصرفون بشؤون مللهم .

وكانت هذه بداية الامتيازات الاجنبية في تركيا . وكان هناك ضرائب للاتراك وضرائب لغير الاتراك وكان غير المسلمين يضطرون لدفع ضرائب للقيام بالمشاريع القومية وضرائب اخرى لمساعدة الجيش التركي . ولما كان غير المسلمين لا يسمح لهم بحمل الاسلحة فقد كانت تجبى من المسلمين الضرائب لتتوازن الكفتان .

وهناك شر آخر لا يقل خطورة وضرراً عن الاول وهو ان المسلمين وحدهم هم الذين كانوا يجندون ويؤذن لهم بحمل السلاح دون سواهم ، بينما اعفيت الطوائف الاخرى من الخدمة العسكرية .

والخدمة العسكرية مهما قيل في تقبيحها واجب وطني محتم .

واني لا ادافع عن الحرب ولا احبذها بل ربما كنت من اشد الناس مقتاً لها ولكنني مع هذا ارى ان الحرب قانون الحياة ، وان الرجال الذين يهربون من الخدمة العسكرية يفقدون شيئاً غير قليل من رجولتهم ولا يكونون من كاملي الاخلاق والتربية هم حقيقة موجودون في الامة ولكنهم لا يكونون جزءاً منها لانهم عندما يتهربون من الجندية يقيمون الدليل القوي والبرهان القاطع على انهم لا يحبون اوطانهم

والرجل الذي لا يحب وطنه مهما سمت ميزاته الاخرى فهو دون ريب ناقص التربية .

وفضلا عن هذا كان افراد هذه الملل يشتركون في الحرب ومن الطبيعي ان يظل عددهم متزايداً خلافاً للاتراك المسلمين وهذا ضاعف عدم التوازن .

وكان الشبان المسلمون غير الاتراك يقبلون في الجيش التركي شرط ان لا يؤلف منهم فرقة خاصة « الاي » وكانوا يرتدون عادة ثيابا تختلف كل الاختلاف عن التي يرتديها الجنود الاتراك فكان في الجيش التركي الفرق العربية والمغربية والكردية والمصرية والالبانية .

وقد ضاعفت هذه الفرق من جمال حفلات استعراض الجيش التركي وفي سنة ١٦٠٠ بلغ عدد سكان استنبول ما يقارب المليون .

اجل اننا لا ندرس تاريخ السلطان محمد الفاتح الا وشعرنا شعوراً عميقاً بانه كان ارقى بكثير من الزمن الذي وجد فيه .

عاش السلطان محمد الفاتح في زمن لم تظهر فيه العلوم الحديثة ولم تبتكر فيه القرائح الاختراعات والآلات التي نتمتع بها اليوم .

كانت الطباعة قد اخترعت منذ زمن ليس ببعيد ولم تكن اميركا اكتشفت ومر قرن كامل قبل ان توضع الاسس التي شيد عليها صرح الولايات المتحدة المتين .

* * *

وقد بلغ من انقسام الملل بعضها على بعض ان كل ملة كانت تسكن في قسم من اقسام المدينة !! او في قرى نائية !!

اما اليوم فـان (القوميـة) حلت محل النـزعات الـطائفية وهـذا ما يجب ان ينشـرح له صـدر كل انسـان يحب الانسانيـة حقيقـة ويتمنى ان يسـود السلام في العـالم . وما تجلت هـذه الظاهـرة الحميدة الا بعـد ان شعر الفرد بقوته وايقن ان الدين علاقة شخصية بين الانسان وربه .

لقد آمن الانسان بـان الدين عـلاقة شخصيـة اكثر منهـا شعبية او قومية ففصل بين حياته القومية وحياته الدينية واعـطى ما لقيصـر لقيصر وما لله لله .

وانه لما يثلج الصدور حقيقة ان نجد في البلد الواحـد من يدينـون بـاكثر من اثني عشـر ديناً كلهم متضـامنـون بـرابـطة قـويـة هي رابـطة القومية التي يجب ان نحرص عليها حرصنا على العلاقـة الشخصية بيننـا وبين الله .

وهـذه الاراء عينها هي التي دفعت تـركيـا العصـريـة لان تفصـل الدين عن السياسة منذ سنة ١٩٢٢ .

فتركيا الحديثة لا تعتـرف بالملل ، ولا تقـر الاقليات عـلى مطالبهـا الخاصة مهما كانت عادلة . ولا تعتـرف للبعض بامتيـازات على حسـاب البعض الاخر .

والـدستور التركي الحـديث ينص نصـاً صـريحـاً عـلى ان الـذين يقيمون في تركيـا بصورة دائمـة يصبحون من الـرعايـا الاتراك ويسمـون (اتـراكا) كـما يطلق عـلى كل فـرد من سكان الـولايات المتحـدة كلمـة « اميركي » .

وليس لتركيا دين رسمي فالفرد حـر ان يعتنق الدين الـذي يريـح

ضميره ، وهو حر ان يتضرع الى الله بالصورة التي يراها اقرب للعزة الالهية من سواها .

وكلمة « تركي » اصبحت اصطلاحاً سياسياً لا دينياً فهي تعني كل فرد من رعايا الجمهورية التركية .

الفصل الرابع

بعد ان قضيت في الشرق الادنى سنة ونصف توفيت امي فجأة . . ولم اسمع بوفاتها الا بعد ستة اسابيع . . لان الاخبار لم تكن تصل بالسرعة التي نشهدها في عصرنا الحاضر .

واضطربت حياتي ولم ادر ماذا افعل في غربتي . . ايقنت ان لا مناص من تركي لتركيا والعودة الى الولايات المتحدة لاشارك ابي واخوتي احزانهم .

ولكني اخذت افكر في السفر وتكاليفه ومتاعبه في تلك الايام اذ كان السفر من اشق الامور .

ومرت شهور ولم اتحرك من مكاني ، فالهمني الله العزاء ، وصبرت على هذه الفاجعة الاليمة والخسارة الكبرى واكتفيت بالرسائل العديدة وكنت كلما طالت مدة بقائي في تركيا زدت تعلقاً بها واختلاطاً برجالها ونسائها .

وكنت اكثر من الخروج الى النزهة على الجياد مع اصدقائي الاتراك فنطوف انحاء جبال ارارات .

وقد قطعت في السنوات الاربع الاولى التي قضيتها في تركيا اكثر

من ثلاثة الاف ميل على ظهور الخيل وكانت نفسي تتوق للتعرف باكبر عدد منْ الاتراك تسمح به الظروف المحيطة بنا ، ازور الاتراك في دورهم واسائلهم عن دقائق حياتهم وادون كل ما اجده طريفاً يستحق الذكر وكثيراً ما كنت اقضي الليالي في دور قروية . وكما ان الانسان العصري يتعلق اليوم بسيارته او طيارته تعلقاً عجيباً هكذا كان المرء في الزمن القديم يتعلق بجواده وكنت اعد جوادي اقرب واعز صديق الى قلبي . ولم اترك مكاناً في ارضروم الا درسته .

واجتمعت في اثناء تجوالي الى عدد كبير من زعماء الاكراد . وكنت اعجب اعجابا شديداً بثيابهم الغريبة . ولكنهم كانوا يمتطون الخيول السريعة يعدون بها فلا استطيع الا ان المحهم لمحاً..

اما ثيابهم فتدخل الانشراح على النفس باناقتها والوانها الزاهية البهجة .

وتجد احيانا لبادة الجواد الذي يركبه الفارس منهم ذات لون احمر براق والخرج مزركشة زركشة بديعة ، ثم تجد الركاب من الذهب الخالص مطعمة بالاحجار الكريمة . وكنا نجد آذان الخيول مزينة بالشراريب الحمراء وحول رقبة الجواد عقد نظموا فيه عدداً كبيراً من الخرز الازرق ليطردوا به الارواح الشريرة .

وكان الزعيم الكردي يضع عادة على رأسه طاقية من اللون الاحمر الفاتح مزركشة بضفائر من الذهب او الفضة . ويضع على جسمه سترة مزركشة من الجوخ الاحمر او الازرق الزاهي ويرتدي سروالا فضفاضاً محلولا من اللون الاحمر او الازرق الزاهي يربطه تحت ركبته ثم يرتدي فوق ذلك كله عباءة فضفاضة من الموصلين الابيض مزركشة اجمل زركشة .

ثم تجده قد حشى حزامه بالمسدسات والطبنجات والغدارات والخناجر وترى السيوف تلمع على جانبيه .

وكان الزعيم الكردي يلف حول وسطه حزاماً عجمياً يضع فيه ما يحتاج اليه من تبغ وغيره من لوازم السفر الضرورية كما كان يضع اكياس النقود التي يكون قد اراح اصحابها منها فهو لا يريد ان يرى رجلاً مسافراً غير متيقظ ويرى انسب علاج لطرد النعاس عنه ان ينتزع كيس نقوده منه .

اما في القرى فكنا لا نجد فندقاً واحداً ولهذا كنا نحل ضيوفاً على القرويين وكانت السهول المحيطة بارضروم قاحلة ولكن بعض انحاء (ارارات) المرتفعة منبتة نوعاً .

اما الطقس فكان قارساً جداً ووسائل التدفئة معدومة . وكنا نجد الكلاب البرية اينما سرنا يستعاض بها عن الحراس وهذه الكلاب المتوحشة تبعث الفزع في صدور المسافرين على الاقدام .

وكان القرويون يحتفظون بالحيوانات داخل دورهم بل كانوا يقولون انها تدفئهم بدلاً عن الوقود .

وكانوا يفرشون لنا السجاد والمخدات المريحة فنقضي وقتاً من اسعد الاوقات واني لأتذكر باني قضيت ليالي في الدور القروية فما شعرت باي نوع من الضيق بل كنت ارى اسباب الراحة مستكملة فيها .

وقضيت مرة ليلة في دار كردي متزوج من ثلاث نساء على غاية من الفتنة والجمال . ومما يجمل ذكره ان الاكراد يمتازون بالجمال رجالاً ونساء ولم اكن اجد القرويين يتبرمون بالحياة . بل لا يفكرون في

السّعادة والشقاء كما نفكر نحن في القرن العشرين .

ولم تكن المدارس متوفرة وكان عدد الذين يستطيعون القراءة ضئيلاً اما السلطان عبد العزيز فكأن يعامل هؤلاء القرويين كما يعامل اهل المدن على السواء دون تحيز او محاباة .

كان في الواقع سلطانا عادلا منصفاً بل بلغ من تسامحه الديني ان سمح ان يكون طبيبه الخاص يهودياً ومحضر الدواء يهودياً والامين على الخزينة ارمنياً ووكيل الخرج والمؤنة يونانياً .

واستطاع السلاطين العثمانيون في اقل من ثلثمائة سنة ان يخلقوا من لا شيء امبراطورية مترامية الاطراف فقد وصلت في ذلك الحين الى مدخل مدينة (فينا) عاصمة النمسا ، وحدود ايطاليا وجزر البحر الابيض المتوسط الشرقية وبلاد الجزائر وطرابلس الغرب ، وتونس ومصر في افريقية الشمالية والسويس والبحر الاحمر وبلاد العرب وسوريا وفلسطين .

وامتد نفوذها في اسيا الوسطى الى ما وراء بغداد والموصل حتى خليج فارس وكانت سواحل البحر الاسود الجنوبية والشرقية من الاملاك التركية وكذلك شبه جزيرة القرم في جنوب روسيا والى حدود بولونيا .

ولقد تحققت اماني الامبراطورية التركية في عهد السلطان سليمان القانوني اكثر من ايام اي سلطان اخر . ففي اثناء توليته الملك في الشطر الاول من القرن السادس عشر كان رعاياه من غير المسلمين في حالة افضل من حالة القرويين في عدة ممالك اخرى بل كانت لهم حصة معينة في ادارة الحكومة وكان احد وزرائه التسعة من اليونانيين وكثير من موظفيه المدنيين والحربيين من غير المسلمين .

وليس ادل على رضاء غير المسلمين من انه في اثناء حكم سليمان القانوني الذي يقرب من ٤٦ سنة لم تحدث ثورة واحدة وكانت السكينة تسود البلاد من اقصاها الى اقصاها مع انه كان يعيش في ذلك الحين ٢٠ شعباً مختلفاً في بلد واحد .

ولم يبلغ احتقار الناس الحرف كلها ـ ما عدا القتال ـ الحد الذي بلغه في ايام سليمان .

كان يخيل لهم ان كسب المال عن طريق اي حرفة اخرى يشين سمعتهم ويحط من كرامتهم .

وقد سمعت هذه القصة التي ارويها كما سمعتها والتي توضح هذه الحقيقة .

لاحظ السلطان سليمان ان ركاب جواده وهو من الذهب الخالص غير متقن الصنع فاسقط في يد متولي العناية بشؤون الخيل في قصره ولم يدر ماذا يصنع وتقدم جندي من وسط الصفوف وعرض على السلطان استعداده لاصلاح الخلل فوراً ، واعاد الركاب الى ما كان .

وامتطى السلطان جواده واخذ يتفقد جيوشه مرحاً . ثم اشار الى الجندي في زهو وكبرياء فجاء الجندي راكضاً ، فقدم له السلطان كيساً مملوءاً من الذهب وقال له : ـ ينبغي ان تترك الجيش فوراً فاني لا احتفظ بجندي واحد يحتقر نفسه الى درجة انه يقوم باعمال يدوية !! . . .

وكان الانسان في ايام السلطان سليمان كما في عهد غيره من السلاطين لا يطمئن على رأسه وكان مجبراً ان يلمسها على الدوام ليرى اذا كانت باقية . لان السلاطين في ذلك الحين اعتادوا ان يريحوا بعض

الاشخاص الذين يضايقونهم من رؤوسهم ويفعلون ذلك تحت تأثيرات وقتية خاصة وبدوافع غريبة فبينما يخيل لاحدهم انه يستحق اكليل الغار يسمع ان الامر صدر بضرب عنقه .

وكان يكفي ان يقول السلطان سليمان ان هذا الرجل اهاجني واثار غضبي حتى يشمر الجلاد عن ساعده ويطير رأس المسكين في طرفة عين .

وكان السلطان سليمان معاصراً لهنري الثامن ملك انكلترا ، والامبراطور شارل الخامس ، وفرنسوا الاول ملك فرنسا ، والبابا لاون العاشر ، وسيجسموند ملك بولونيا ويمكننا ان نقارن السلطان بهؤلاء الاباطرة والملوك فهو لم يكن يقل عنهم في شيء بل يمتاز عنهم بالذكاء .

* * *

وكان محمود الثاني احد السلاطين الثلاثة الذين انتفعت البلاد على ايديهم اكبر انتفاع . والسلطان محمد الثاني كان معاصراً لنابوليون الاكبر ، وكان يعد اقوى السلاطين الاتراك عزيمة واكثرهم ثباتاً منذ عهد السلطان سليمان .

وهو اول من حاول ان يصبغ جيوشه بالصبغة الاوربية فادخل التمارين العسكرية الغربية ، وغيرها من النظم الحربية الاوربية ، وحاول تكوين جيش عصري يحق ان يكون قدوة لغيره من الجيوش .

وفي سنة ١٨٢٦ الغى الفرقة الانكشارية « الجنود المرتزقة » وحاول ايضاً ان يضع حداً فاصلا بين القوانين الدينية والقوانين المدنية وقام بعدة اصلاحات مهمة ورقى مستوى العبيد الذين كانوا يملأون دور السلاطين ، وكان اول من ادخل مبادىء التربية العصرية .

السلطان عبد العزيز

كان السلطان عبد العزيز من حيث الهيئة الخارجية من اجمل لاتراك وكان منظره يدل على المهابة والفخامة .

وبلغ من فرط جماله ان النساء كن يلقبنه « بغاوي النساء » اما الرجال فكانوا يتهمونه بالخلاعة ويسمونه السلطان (المتهتك) او الشهواني !!

وكان السلطان يحتفظ بجيش كبير من النساء في داره ، وكان يحاول ارضاء الجيش ويخاف اشد الخوف من قوة الرأي العام بيد انه كان يعرف كيف يمثل عظمة الملوك .

وكانت الامبراطورية التركية في ايام السلطان عبد العزيز مترامية الاطراف والجيش التركي يماثل الجيوش الاوربية ولا يقل عنها شأنا .

وقد بلغ من اهتمام السلطان عبد العزيز بالقوة البحرية ان ابتاع خمسة عشر سفينة من السفن الحربية الكبيرة وقد كلفته السفينة الواحدة نحواً من مليوني ليرة انكليزية . وعندما هبطت استنبول واقمت فيها كان الاسطول التركي ثالث اساطيل العالم من حيث القوة والعدة . كان اقوى من الاسطولين الانكليزي والافرنسي !

وكانت السفن الحربية تملأ بحر مرمرة ومياه البسفور وامام قصر ضولمه باغجه والقرن الذهبي واعالي البسفور قرب البحر الاسود .

وكانت المدافع تطلق في كل يوم جمعة احتراما ليوم المسلمين المقدس وفي الاعياد الدينية والوطنية وفي اوقات الصلاة الخمسة من

كـل يوم من ايـام شهر رمضـان المبارك . وكـان السلطان عبـد العـزيـز يحتفظ بنظام الحريم القديم .

« وحـرم السلاطـين » كان احـد اسبـاب سقـوطهم ! وقـد اظهـر لتـاريخ بجـلاء ان الـرجـال الـذين يتـزوجـون بعـدد كبـير من النسـاء يعاقبون عقـاباً اشـد بكثير من العقـوبة التي تلحق نسـاءهم من الوجهـة لفسيولوجية .

وقاست نساء عبد العزيز كما قاست نساء السلاطين الـذين جاءوا من قبله وبعـده ضروب العـذاب وعـلى الاخص من القلق الـذي كـان يساورهن وعدم الاطمئنان الى مستقبلهن .

وليس هنـاك ما يضعف جسم المـرأة ويـذبله اكـثر من ان تكـون ضعيفة الامل بملاقاة اليوم الذي ستكون فيه متزوجة بمن تشتهي ! !

وقـد كن يخرجن للنـزهة احيـانا في عربات مـذهبة تجرها الخيـول المطهمة ذوات السروج الذهبية وكانت تمر هذه العربات الملوكيـة احيانـا في منتصف الاسواق العامة والحوانيت الكبرى .

وكنـا نـراهـا احيـانـا تقصـد جسـر غلطه او تمـرح كـما تشـاء في الضواحي حيث يتاح للحريم الاستمتاع بأكبر قسط من الحرية .

وكن لا يـرتدين غـير الثياب الـزاهية لانهن يعلمن ان فتنتهن هي كـل راسمـالهن وانهن يـوم يفقـدن جمـالهن يفقـدن حـظوتهن عنـد ازواجهن .

* * *

ويمكنا ان نقول ان السلطان عبـد العزيـز كان « جنتلمـانا » اكـثر

من السلاطين الذين سبقوه كلهم . وكان يرحب بالسفراء ويدعوهم الى قصره مقتديا في ذلك بالملوك الأوروبيين .

وكان الخصيان وحدهم الذين يتحكمون في الحريم كما يحلو لهم ، ووحدهم الذين « يسعدون » بسوق العربات والخروج مع الحريم للنزهة . بل كان يؤذن لهم بدخول الحمامات معهن !!

وكانوا يتصرفون كما يشاؤ ون بحريم السلطان عبد العزيز اللواتي يزدن عن تسعماية امرأة يحرسهن ثلثماية من الخصيان !!

وربما كان نساء القصر لا تخشين السلطان بقدر ما يخشين هذه المخلوقات التي شوهت تشويهاً قبيحاً .

وقد طلب الوزراء من السلطان عبد العزيز انقاص عدد زوجاته لان نفقاتهن كثيرة ترهق الخزانة فوعد بالنزول عند طلبهم وما وفى . وكانت امور الدولة وشؤ ونها في ايدي هؤلاء الغانيات .

وهناك البوابة الامبراطورية يحرسها عدد لا يقل عن خمسين حارساً وكانت هناك اربعة ابواب بعضها من البرونز تراقب نهاراً وليلا ولا يحق لاي رجل مهما كان مقامه المرور منها الا السلطان وفي وسط القصر كنت ترى حديقة تمرح فيها هؤلاء الغانيات .

وكان السطان عبد العزيز يحتفظ بعدد كبير من الموظفين بينهم المنجمون والائمة واطباء الجسم واطباء العيون .

اما كبير المنجمين فلم يكن له مهمة غير استشارة النجوم وحضها على افشاء الاسرار له دون سواه . فكان يطلب منها ان تعلمه عن الايام الموافقة التي تصلح للقيام بالقتال وايام النحس التي يبتعد عنها .

وكان السلطان ينتظر بفارغ الصبر ان ينتهي المنجم من حديثه الغرامي مع النجوم وماذا قالت « عشيقاته » له !!

اما طبيب العيون الخاص بتطبيب السلطان ونسائه فكان شديد العناية بسيده وكانت عينا عبد العزيز لا تقلان جمالا عن عيون نسائه ولا تحتاجان الى ادوية او علاجات ، ولهذا انصرف الطبيب الى صناعة من ادق الصناعات وهي صناعة الكحل فكانت مهمته الوحيدة ان يحضره ويرسله الى الحريم يتجملن به ليفتن السلطان ! وكن يتهافتن على كحله تهافتاً عجيباً .

اما المشرف العام على جنائن السلطان فكان له الحق المطلق بالمراقبة والتفتيش على شواطىء البسفور من بحر مرمره الى البحر الاسود .

وبقدر ما كان الموظف صاحب حظوة عند السلطان يلقى من نعيم موفور بالقدر عينه كان يلقى ضروب العذاب والوان الاضطهاد عندما كان السلطان ينزل جام غضبه عليه .

وكان بالقرب من سراج او غلو سجن ويا له من سجن ! كان سجناً مخيفاً حقاً يطلقون عليه في تلك الايام السوداء « الفرن » وكان يطرح فيه الموظف الذي يرتابون في سلوكه فيلقى من التعذيب ما يجعل الجسم يرتجف لمجرد سرده ، ولكننا نشفق على القارىء فنمر بهذا « الفرن » مرور الكرام دون سرد شيء من اخباره .

وكان الخصيان على نوعين : الخصيان السود والخصيان البيض . وكان رئيس الخصيان السود هو الرئيس الاعلى ويسمى بالتركية « قيزلر آغاسي » اي حاكم البنات وكان اسمه وحده يكفي لان يلقي الرعب

في قلوب نساء القصر كلهن بل الرجال انفسهم يخافون سطوته ونفوذه !

اجل لقد كان « سيد البنات » هذا على الرغم من تشويه خلقته ونحول جسمه من اقوى رجال المملكة نفوذاً وسلطانا .

وكم في الدنيا من عجائب وكم فيها غرائب !

وكان السلطان عبد العزيز وغيره من السلاطين يستعين بالخدم الخرس فيوكل اليهم حراسة الابواب التي تجري من ورائها الاحاديث السرية الهامة والخاصة بشؤون الدولة الجوهرية .

وكان عبد العزيز يتمتع باكبر قسط من النعيم والرفاهة بل كان نعيمه من النوع الذي لا يعرفه الغربيون ويعدونه من قبيل الاساطير والخرافات واقاصيص الف ليلة وكيف يمكنهم ان يصدقوا ان رجلاً كعبد العزيز يحتفظ في قصره بستة الاف موظف ؟ وكيف يمكن ان يصدق انسان ان رجلاً يقف على خدمته وخدمة من في قصوره ٣٠٠ طباخ ، ومساعد طباخ واربعمائة نوتي ! . . .

وكيف يصدق العقل البشري ان سلطاناً يخصص جيشاً صغيراً من موظفيه للاهتمام بتبغه وقصبة تدخينه وفناجين القهوة ، واحواض غسيل وجهه ، تلك الاحواض التي كانت من المرمر الجميل ؟

ولكن الشرق قد عرف منذ القدم بمظاهر الترف والبذخ والشرقيون يستمعون الى هذه الاخبار فلا تهولهم كما تهولنا نحن الغربيين لضخامتها .

ويكفي ان تعلم ان الشرقي عندما يولم وليمة لرجل كبير يحضر من الطعام ما يكفي لمائة رجل او اكثر .

عـاش الشرقيـون في الاسراف وهم يعيشـون اليوم كـذلـك وسيقضـون حياتهم فيـه وهم يسمعون الانتقـاد من الغربيـين فيبتسمـون ويظل الاسراف يستهـويهم استهواء غـريباً وهـو علة خرابهم وافلاسهم وسر تأخرهم عن الغرب .

ومـاذا تقول في سلطان يحتفظ بستمـاية جـواد في اصـطبـلاتـه من الخيول الاصيلة العريقة النسب ؟

وماذا تقول في سلطان تحت امرته مائتا حوذي ؟

امـا سياس خيـول عبد العـزيز فكـانوا يعـدون بالمئـات ! وليقـدر القارىء نفقات هذه القصور .

امـا نحن فكل مـا نستطيـع ان نقولـه انـه ليس هنـاك تقـاريـر او سجلات تحتفظ بنفقات هـذه القصور ولهـذا لا نستطيـع ان نخمن وكل مـا نستطيـع ان نقولـه عن حق ان سلطاناً يفعـل هذا واكـثر من هذا لا يعرف الادخار ولا يفهم منه شيئاً .

وكانت استنبول قديماً مقسمة الى احيـاء ومناطق امـا حي (بيرا) فيقيم فيـه سفراء الـدول الاجنبية شتـاء ويقضون الصيف عـلى ضفـاف البسفور .

وفي (بيـرا) كانت معـظم دور الاجـانب وفيهـا المخـازن والبنـوك الاجنبية ولم تكن هناك خطوط ترام تربط اجزاء استنبـول المترامية ولكن كـان هناك خط قصـير تحت الارض يبتدىء من غلطه وينتهي عـنـد بيـرا ويسمى (التونيل) او النفق وتقطع هذه المسافة في ثلاث دقائق .

وعـلى مر السنـين وجدنـا العربـات الأوروبية تغـزو تركيـا وكـانت تجرها الخيول ولكن الاتراك كانوا لا يقبلون عليها في بادىء الامر .

وكـان معظم الاتـراك يسكنـون في استنبـول واسكـدار وقـرى البسفور .

وكـان من اجمل الاشيـاء التي تروق الانسـان اكثر من غيـرهـا في استنبـول منظر (السـوق) وكثيراً مـا كنت اقصد هـذه الاسواق القـديمة فاقف قليلاً اتنسم رائحة التوابل والبهارات .

اما الاسواق فكانت مسقوفـة وطويلة فكنـا نقضي الساعـات حتى ننتهي على آخر مخزن فيها وكانت كل سوق تشغل الفـدادين العديـدة . وقد فتحوا بعض الكوات غير المنظمة الشكل في السقف لانارتها .

ولكن هذه الفتحات قليلة ولهذا ترى السـوق مظلماً قليـلاً ويدعـو للانقباض اما كل قسم من اقسام السوق فخـاص بنوع معين من انواع السلع ، ويظهر انهم قد فهموا في تـركيا فضيلة التخصص التي تعـد بلا ريب من اكبر اسباب نجاح التجار في الغرب .

وكـانت المخازن في الاسـواق صغيرة جـداً بـدرجـة انها كـانت لا تفرق كثيراً عن غرف الاطفال وكانت مكشوفـة للمارة يستـطيع المتفـرج ان يرى ما في داخل المخزن كله ولهـذا كنا نقضي السـاعات الـطويلة في (الفرجة) نقطع الوقت عندما لا نجد عملاً نعمله .

وكنـا نشاهـد التجار يصفـون البضائـع عـلى الـرفـوف من ثـلاثـة جوانب .

ولم يكونوا يـرغبون في الجلوس عـلى الكراسي بـل يفضلون عليها الجلوس القـرفصاء فتجـد الـواحـد منهم قـد جلس عـلى سجـادة كبيـرة واستند الى وسادة وثيـرة واخذ يـدخن غليونـه الطويـل وهو لا يفكـر في العالم وما يجري في العالم . . . كانوا بسـطاء الى ابعد حـدود البساطة .

وكان لا همّ لهم الا ان يشبعوا بطونهم وبطون زوجاتهم واطفالهم . . . وهكذا كانت حياتهم اكلاً ونوماً .

واحياناً كنت تجد التاجر قد تحمس واخذ يصرخ في المارة يرغبهم في المجيء ويحضهم على الشراء بكل انواع الحض والترغيب .

ولم تكن عملية الشراء بالعملية السهلة ولا الاثمان محددة . وكان يحتم على المشتري ان يخفض النصف على الاقل من الثمن الذي يعرضه التاجر اولا ثم يبدأ بالمساومة حتى يتفق الطرفان .

وكانت عملية المساومة هذه فناً من الفنون الجميلة حقاً وكانت اقل غلطة من التاجر تنفر المشتري وتدفعه لعدم الشراء . وكثيرا ما اشتريت الاشياء باضعاف ثمنها الحقيقي لاني كنت اولاً اخجل من عملية المساومة ثانياً لاني كنت اقدر الاثمان بمعدل اميركا .

ولكني على مر السنين اتقنت فن المساومة كما يظهر ذلك من الحادثة التي ارويها فيما يلي :

دخلت مخزناً من المخازن التي تعني ببيع الحلى ، وأعجبت بخاتم صغير اعجاباً كبيراً وصممت على شرائه ، سألت التاجر :

ـ كم ثمنه ؟

ـ ليرة !

فبدأت اساوم كما يفعلون في تركيا ويظهر ان التاجر فهم اني من النوع الذي حذق فن المساومة فالتفت الى شريكه وقال بالتركية وقد خيل له اني لا اجيدها ولا افهم منها الا بعض كلمات .

ـ يظهر انها (شاطره) وليست كبقية الاجانب فلا تخفض الثمن

الى اقل من النصف .

ورأيت ان نصف ليـرة ثمن معقـول فـاخـرجت نصف الليـرة وقدمتها له فضحك التاجر وشريكه وقال البائع :

ـ سنقبـل هذه المرة هذا الثمن عـلى ان تكون طلبـاتك كلهـا من محلنا .

ـ اعدك بذلك ! . . .

وخرجت من المحل والدنيا لا تسعني .

وكانت شوارع استنبول في ذلك الحين ضيقة ملتوية هـادئة هـدوءاً مـذهـلاً وكـان الـذي يمـر في منتصف النهـار فيهـا يـأخـذه العجب من سكونها بل كان لا يعكر هـذا الهدوء الشـامل غـير صراخ صغـار البـاعـة ونباح الكلاب .

وكان الباعة يحملون فوق رؤوسهم الاطباق الخشبية وعليها الخبز والحلوى والشرابات .

ولم تكن النزهة جائزة في استنبـول بعـد اطلاق مـدفع الغـروب . اما الخفراء فكانوا يطوفون في اثنـاء الليل . ولـو كان الامـر قاصـراً على الطواف لهان علينا طوافهم ولكنهم كانوا لا يحركون خـطوة الا ويدقـون على الارصفة الحجرية والمماشي المصنوعة من البلاط بـالنبابيت الغليـظة والهراوات الثقيلة ويصحبون هذه الحركـات بصرخـات اقوى من الـرعد فكان من الطبيعي ان ننهض مذعورين مـراراً في الليلة ، وكان يخيـل لنا ان الارض قـد زلزلت زلـزالهـا او ارعـدت ثم نعـود الى فـراشنـا فنلعن الحـراسة والحـراس ونتمنى لو بقيت استنبـول بـدون هـذه الـطبقـة من الاميـين الجهلة الذين كثيـراً ما كـانوا انصـاراً وشركـاء للصوص والقتلة

كانوا يفعلون هذا واكثر منه ليجعلوا النيام على يقين بان الامور تجري كما يشتهون ويحلمون انهم قد ملكوا ناصية الامور .

اما الكلاب فكانت تمرح ليلاً كما يحلو لها .

وكان لكل ضربة من الهراوات الضخمة صدى نباح يشق الآذان ويجعل النوم مستحيلاً وربما يكون نباح الكلاب هذا ناجماً عن سخطها على الحراس لانها تنافسهم على الرغم مما تظهره من مقدرة على الحراسة ولثقتها انها في استطاعتها ان تقوم بهذه الحراسة دون الحراس وصياح الحراس .

وكان يحدث كثيراً ان ننهض مذعورين من النوم على اصوات الاستغاثة .

وكانت هناك حمامات عامة للرجال والنساء وكانت تتوفر في هذه الحمامات المياه الساخنة والباردة وكانت جدرانها واراضيها من الرخام الجميل .

وسأصف ما يجري للمرأة اذا ارادت الاستحمام في هذه الحمامات وما تقاسيه من ايدي الخادمات اللواتي كن لا يميزن بين الاجسام الضعيفة والاجسام القوية فقد تعودن ان يستعملن الشدة مع النساء .

اجل كن يسلخن المرأة سلخاً ويحاولن انتزاع جلدها عنها .

تدخل المرأة الى الحمام فتستقبل استقبالاً حاراً ويتلقفونها كما يتلقفون عادة العروس الفاتنة عندما تعود الى دار العريس لاول مرة فتدخلها الخادمات الى غرفة خاصة وتنزع عنها ثيابها ثم تلفها امرأة منهن بمنشفة تركية طويلة لفاً محكماً حتى تكاد تمزق ضلوعها (كذا) ثم

تسـير هذه العـروس تتهادى وهي ملفـوفة حتى تصـل الى مقعـد فتتكىء متراخية تنتظر فنجان القهوة التركية فتشربها وهي تفكر فيـما سيجري لهـا على ايدي المدلكات .

ومـا ان تنتهي من شرب القهـوة حتى يـطلب من (الضحيـة) ان تقبـل فتنهض وتسير في منـطقة ملتهبـة لا تقوى عـلى احتمـال حـرارتهـا فيطلب منها البقاء ولا تستطيـع الهرب بـاي حال فـان المنشفة تكـون قد انتـزعت عن جسمها واصبحت عـاريـة . ولا تكـاد تـرفـع نـظرهـا الى المدلكة حتى المياه الساخنة قد صبت على رأسها فتصـرخ ولكن صراخهـا يضيع في تلك الجلبة .

وهؤلاء النسـوة الخشنات لا يبـالـين بـالمستحمـات ان فـطسن او اختنقن او بحت اصـواتهن من الصراخ والبكـاء . فهن لا يعـرفن وقف الحركة في منتصف الـطريق واحياناً كنت اقطع الامـل من الحياة لشـدة ما اقاسيه من ايديهن القاسية واوقن اني سأهلك لا محالة .

ومـع هذا فلم اسمـع عن امرأة واحـدة توفيت في حمـام من هـذه الحمامات بسبب الذي كن يصادفنه .

وكنت دائـماً ارى المستحمات يخـرجن وقد نهكت قـواهن فيرتمـين على المقاعد المريحة يصرفن الساعات في اللهـو ويكثرن من شـرب القهوة التركية .

وكنت ارغب في هـذه الحمامـات واقصدهـا بين حـين وآخر عـلى الرغم مما كنت الاقيه من العذاب الشديد ولكنـه في الوقت عينـه عذاب لذيذ .

وفي ايام السلطان عبد العزيز كـانت اسواق تجارة الرقيق الابيض

رائجة في استنبول رواجاً عظيماً .

وكان الاولاد والبنات الذين يعرضون في هذه الاسواق من الشراكسة او العبيد السود .

وكانت الجاريات يلقين في ايام السلطان عبد العزيز اشد العطف بل كن يعاملن كأنهن جزء من العائلة وعندما يصلن الى دور الزواج يسلمن لاصحابهن ليزوجوهن .

اما عن كلاب استانبول وكثرتها فحدث ولا حرج . وكان اذا حدث ان كلباً غريباً ظهر في شارع من شوارع استنبول دون ان يكون قد تسلم (دعوة رسمية) لا يلقى غير الموت الاكيد . كانت الكلاب تحتشد حوله وتعمل انيابها في جسمه فلا تتركه الا ممزقاً تمزيقاً ثم تعود الى اماكنها جزلة طروبة لانها انتقمت من ضيف متطفل يريد ان يحشر انفه في وسطها .

واما تاريخ استنبول فقد تأثر تأثيراً عظيماً من موقعها الجغرافي . وانك لتبحث في مدن العالم كلها فلا تجد مدينة واحدة تتمتع بما تتمتع به استنبول من استقلال وفي الوقت عينه تجدها متصلة بالعالم كله .

ولن تجد موقعاً جغرافياً يساعد على التقدم التجاري والزعامة السياسية كما تجد في استنبول .

وفي ايام السلطان عبد العزيز كانت قوافل الجمال تحمل السلع الى اسواق استنبول وتحط رحالها بعد طواف طويل ورحلات شاقة في الاحياء المخصصة لوقوفها خارج اسوار المدينة .

وتصب في ميناء استنبول مياه بحر ايجه ومرمره والبحر الاسود وبحر ازوف .

وفي ايـام السلطان عبد العـزيز كـانت الاسوار البيـزنـطيـة حـول استنبول التي كان قـد انقضى عليها الف سنـة وبقيت في حالـة مرضيـة نسبياً .

وكان السور المحيط بالقرن الذهبي ما زال باقياً وابـوابه صحيحـة لم تمسها يد .

وكـانت العادة ان تغلق البـوابات عنـدمـا يسمـع صـوت مـدفـع الغروب .

ولكن لن تجد بناء يدل على نـزعة الامبـراطوريـة التركيـة القديمـة الحـربية كـالابراج السبعـة ، هـذه الابـراج اصبحت جـزءاً من السجن السلطاني الـذي بناه السلطان محمـد الفاتـح نفسه وكـانت تحوي الحبس المظلم الذي يشبه في تاريخـه الاسود (بـرج لندن) وسجن البـاستيل في باريس .

وفي هـذا السجن كـان يقـذف بـالسـلاطـين الـذين يخلعـون عن عـروشهم ليقضـوا بقيـة اعمـارهم في هـذه الـريـاض الفيحـاء والجنـان الغنّاء .

وكان رؤساء الوزراء المغضوب عليهم لا يلقـون صدراً رحبـاً غير الارض التي كانت رحيمة وستظل رحيمة الى الابد .

وفي ايام السلطان عبد العزيز لم تكن استنبـول قد اقلقت راحتهـا البدع العصريـة او المخترعـات الحديثـة . وكانت تتمتـع بالنـوم العميق نوم الملائكة الهادىء .

وكـان يقصـد استنبـول في عهـد السلطان عبـد العـزيـز كثـير من السيـاح . وكـان في حي بيـرا الأوروبي عـدد من الفنـادق البسيـطة التي

يقصدها الاجانب عادة .

وكان اول عمل يقوم به السائح هو ان يطلب مرشداً يعرف التركية وممن يؤذن لهم بالدخول الى الابنية العامة .

واما رؤية وجه السلطان فكانت في تلك الايام اعظم امنية يتمناها الانسان الم يكن حاكما على اعظم امبراطورية في أوروبا ؟ الم يكن خليفة المسلمين ؟ وكان كلما خرج ليقصد مسجداً من المساجد الكبرى يخيل للمرء ان مجد سليمان قد عاد اما السلطان عبد العزيز فكان يقصد المسجد احياناً في زورق فاخر وتراه قد تربع تحت تندة مزينة بالمعلقات الكثيرة من الذهب الخالص . وفي احيان اخرى كان يقصد الميسجد ممتطياً جواداً عربياً اصيلا تزينه الحلى البهية الباهرة ويحف به كوكبة من الفرسان .

اما عندما كان يقصد السلطان المسجد براً فكان موكبه يؤثر في النفس اعظم الاثر . كانت الجماهير تحتشد لانتظاره والتيمن بطلعته . وكانت هيئة من الضباط تجتمع عند مدخل قصر ضوله باغجه تمثل عظمة السلطان وابهته .

اما الجنود فكانوا يصطفون من الجانبين في كل الشوارع التي سيمر فيها السلطان . وكانوا يعنون برش الارض بالرمل ، هذه الرمال كانت ترش بغزارة وكانت تضاعف من بهجة الموكب ومن جمال الشوارع واناقتها .

واما نساء (الحريم) فكن يخرجن في عربات مغلقة ويحمين انفسهن من التهام نظرات الرجال لهن بالبراقع الكثيفة فيبقين في عرباتهن ملازمات للهدوء والصمت ينتظرن في لهفة شديدة رؤية وجه السلطان .

وكان الخصيان يخرجون في صف طويل وهم اشبه شيء بالمردة ، ويقفون امام القصر فيلقون الرعب في القلوب وادهى من هذا انهم كانوا يلبسونهم الثياب الرسمية السوداء (الفراك) .

ثم كنت ترى كبار موظفي الدولة في ثياب شرقية بهية يمتطون الخيول ويمرحون بها ما شاء لهم المرح !

وعندما كان يصل المتفرج الى هذا المكان الذي يجتمع فيه كبار الموظفين يرى ان التوغل اصبح مستحيلاً وانه خير له ان يقنع بالوقوف مكانه .

واخيراً . . . كان السلطان يظهر على جواد من جياد الهجوم ، ابيض اللون يتبعه حرسه السلطاني الخاص الذي كان مؤلفاً من عدة مئات من الجنود ، ينتخبون من الاقاليم المتعددة وكانت كل جماعة تتزيّ بزي خاص يختلف عن ازياء الجماعات الاخرى .

وعندما كان يمر جلالة السلطان من بوابة القصر كانت تطلق المدافع وتأخذ الفرق الموسيقية في العزف وتقوم الجنود بحركات عسكرية جميلة .

وكان السلطان لا يخرج من قصره الا وقد زين صدره بنجم من الماس الخالص يتلألأ في الشمس ومن المستحيل ان يرى الانسان السلطان ولا يبهره رؤ ية النجم الماسي .

وكان السلطان يسير تحف به المهابة ، في صمت ورصانة ، ويخيل للذين يرونه انه عابس مقطب الوجه لما كان يظهره من رزانة .

وكان لا يلتفت يميناً ولا شمالاً .

وكان عندما يصل الى المسجد يصعد الدرجات الرخامية ببطء

وكانت تفرش ارض المسجد بالسجاد الثمين .

وكان يبقى عادة في المسجد نحواً من ربع ساعة ثم يخرج مودعاً بالاكرام والاجلال فيركب عربته السلطانية التي تجرها اربعة خيول مطهمة ويعود الى القصر في مظاهر عظيمة لا تقل عن المظاهر التي لاقاها عند ذهابه الى المسجد وكان يقول ان مظاهر استقباله في ذهابه للجامع يجب ان تختلف روعة وجمالاً عن مظاهر استقباله في عودته من المسجد .

اما بحر البسفور فحدث عنه ولا حرج . وكان يتمثل لي اجمل منظراً عندما تسبح فيه الزوارق المعروفة بالقابق . وكان في الخلجان والموانىء اكثر من ثمانين الفاً من هذه الزوارق تمرح فتكسب الموانىء روعة وجمالاً . ويقيناً ان هذه القوارب تسبي العقول اكثر من اي شيء آخر في تركيا ، وهي دائماً رشيقة القد هيفاء القوام ، مسننة الطرفين .

وكانت تختلف من حيث الطول ، ومن حيث عدد الجذافين الذين كانوا يختارون اماكنهم في وسطها الواحد وراء الآخر ، في نظام محكم دقيق ، تبعاً لمقام صاحب القارب ومقدار ما في جيوبه من مال .

ولم يكن استئجار هذه القوارب يكلف كثيراً بل بامكان الانسان ان يستأجر قارباً مع رجلين لليوم بطوله بدولار واحد .

وكانت هناك قوارب صغيرة لا تسع اكثر من راكبين او ثلاثة . ويقيناً انه ليس هناك اجمل من نزهة في ضوء القمر بالبسفور في قارب من هذه القوارب الفاتنة ! وان نزهة كهذه لكافية لان تجلي النفس وتزيل عنها ما علق بها من هموم فكان يعود المرء بعد نزهة البسفور وقد امتلأ انتعاشاً وحياة . وبعد ان قضى ساعات استسلم للخيال

الجميل خصوصاً لان دولاب العمل كان يتوقف تـوقفاً تـاماً في استنبـول بعد غروب الشمس فكـان يسود الصمت الـرهيب وكثيراً مـا كنا نقضي في هذه النزهات ساعات طويلة ونبقى الى سـاعة متـأخرة من الليـل وفي الغالب لا نعود الا بعد منتصف الليل .

ومع ان شوارع استنبول مظلمة وضيقة فـان السلطان عبد العـزيز كـان يهتم بتجميـل شـواطىء البسفـور . وكـان الـذي ينعم بنـزهـة في البسفور تقع عينه على القصور الشاهقة الفخمة المطلة عليه .

وفي معظم الاحيان كان بالامكـان بل كـانت العادة ان تقـذف في هذه القوارب حتى تصل الى عتبة الدار . . . يا لها من ايام ! . . .

وكانت القصور المطلة على البسفور يسكنها البشـوات وكبار رجـال الـدولة والامـراء ، وكـانت بنـات السلطان المتـزوجـات يقمن في بعض منها .

وكان بعض كبار المـوظفين في مصـر يقضون الصيف في استنبـول وفيها لهم عدة قصور على شواطىء البسفور .

اما افخم هذه القصـور فهو ضبـولمه بـاغجه ، وكـانت هناك عـدة ابنية شاهقة يحتلها ابنـاء الاسرة المـالكة او الضيـوف الذين يهبـطون على السلطان فيضيفهم ويكرم وفادتهم . اما قصر ضولمه بـاغجه فقـد بدأ في بنائه السلطان عبد المجيد وانتهى بناؤه في عهد السلطان عبد العزيز .

اجـل ، ان العين لا تقـع على بقـايا هـذا القصر حتى يبـدأ يختلج وينبض نبضاً سريعاً اذ يشعر الانسـان انه كـان في يوم مـا قصر ولا كـل القصـور ، بل كـان يمكن ان يقال عنـه (ملك القصور) اذا كـان يجوز ان نستعمل هذا التعبير على حد قولنـا (ملك الذهب وملك النحـاس)

وما الى ذلك .

وكيف لا يكون ملك القصور وحمامات السلطان فيها من المرمر الابيض الذي لا تقع العين على اجمل منه ، هذه الحمامات كانت منقوشة نقشاً بديعاً حقاً هو الجمال بذاته .

ثم كنت ترى الزهور المعلقة ، والمعلقات المحكمة الصنع ، هذه المعلقات الدقيقة بل هذه التحف التي بلغ من دقتها ان الانسان يتردد طويلاً قبل ان يلمسها لمساً لفرط رقتها .

اما غرف القصر فكانت كلها مفروشة بالسجاد الثمين وكانت تزين الجدران كلها بالمنقوشات التي تكاد تنطق ، وكانت المرايا الكبيرة تزين الغرف والصالات وتتناسب مع حجم الغرف الفسيحة ناهيك بالثريات البديعة التي هي اكبر مظاهر الحياة الارستقراطية في ذلك العصر .

وكانت السفن الحربية ، سفن اسطول السلطان راسية على الدوام امام القصر تنتظر . . اقل اشارة من عظمة السلطان .

وكان بالقرب من قصر ضولمه باغجه بناء من المرمر المتين يحوي كثيراً من التحف الفنية ، هذه التحف الثمينة التي كانت تراث الاجيال والقرون والتي جمعها السلطان عبد العزيز واعتنى بها عناية كبرى .

والسلطان عبد العزيز هو اول من بنى الاكشاك البديعة على ضفاف القرن الذهبي ، هذه الاكشاك التي كانت تقصدها الفاتنات في فصل الربيع يمرحن فيها ما شاء لهن المرح .

كما ان السلطان عبد العزيز هو الذي بنى المسجد الفخم بالقرب

من (اورتـه كـوي) . ولا نغـالي اذا قلنـا ان مـا من سلطان بعـد عبـد العـزيز عني ببنـاءِ القصور عنـايتـه ، ولهـذا نجـد القصـور التي بنيت في عهد غيره اقل جمالاً .

وليس هنـاك داع لان نقول ان الحـدائق الغناءَ كـانت تحيط بهـذه القصـور السلطانية ، وغـير السلطانية مـلأى بالاشجـار المثقلة بالازهـار والرياحـين ، المحملة بالفـواكه اللذيـذة ، هذه الاشجـار كان يؤ تى بهـا خصيصـاً من انحاءِ العـالم كله ويعنى بها اتم عنـاية حتى كـانت بساتـين استـ ول قبلة الانظار وفتنة الناظرين .

ولكن هذه البساتين على جمـالها كـانت مستورة عن العيـون مخبوءة وراء الاسـوار المرتفعـة التي تسترهـا عن العيـون خشيـة الحسـد والافتتان .

ومـا عدا ذلـك فـان هـذه الاسـوار العـاليـة كـانت تخفي وراءهـا الاكشاك الصغيرة الدقيقة الصنع تحتشد فيها السـاحـرات اللواتي يتخيرن هذه الاماكن المنزوية الجميلة ليطلقن لانفسهن العنان فكنت تُـراهن قد استندن الى الوسائد الوثيرة واخـذن يلاطفن صـديقاتهن ويـرحبن بهن . ومما يجمل ذكره ان المرأة التـركية تتقن فن التـرحيب بضيوفهـا من النساء اتقاناً عجيباً .

ثم كنت تـرى الخصيان يحملون اليهن الصـواني الـذهبيـة وعليهـا الاواني المذهبةالمملوءةبالذ الحلويـات التركيـة واشهى الشرابـات المثلجة والـذها طعـماً ! فتقضي النساء سـاعات يسعـدن فيها بنعمـة الحريـة ثم ينزوين في مخادعهن .

امـا جسـر غلطه فهـو معقـل الشحـاذين ولا شـك وقـد بلغ من كثرتهم ان الانسان يتوهم انه يسير في معسكر يواكبه عن الجانبين .

وكنت ترى ان كل جندي قد احتل مكاناً من الجسر لا يحيد عنه ولا يتحول مهما كلفه الامر من مشاق . ولا يصل الى مكانه هذا الا بعد ان يبذل مجهوداً عنيفاً وتضحيات غير قليلة فيتقبل الرفس واللكمات والسباب ، ولكنه يأبى ان يتحرك .

واتذكر قصة لا اشك مطلقاً في صحتها .

حدثني صديق قال :

اعرف شحاذاً لا يتحول مطلقاً عن مكانه على الجسر بالرغم من بلوغه الستين مر عليه ذات يوم رجل يسرع في سيره فطلب منه صدقة فقذفه بقطعة من النقود لم يتطلع اليها وتبين له بعد وصوله انه قدم له قطعة ذهبية ! بدلاً من ان يعطيه قطعة نحاسية . وكان حجم العملة الذهب قدر حجم العملة النحاسية على السواء .

وعاد الرجل يبحث عن الشحاذ فلم يجده فاخذ يسأل عنه فاحتشد حوله جمع غفير .

واسدل الليل سدوله واظلمت الدنيا في وجهه واخيراً اقترب منه رجل فسأله المتصدق الكريم :

ـ اين الشحاذ الذي يقف هنا على الدوام ؟

ـ عاد الى داره .

ـ الى داره ؟ وهل للشحاذ دار ؟؟

ـ بلا ريب !

ـ هل لك ان تأخذني اليه ؟

ـ نعم فانا طوع امرك .

وسار الرجلان حتى وصلا الى دار انيقة في غلطه وافترق (المرشد) فقرع المحسن الباب فخرج احد الخدم واطل من النافذة وقال :

ـ ان سيدي في الطابق الاعلى وهو الان يستحم ويستبدل ثيابه فانتظر في غرفة الاستقبال .

وظهر الشحاذ بعد ان اغتسل وتطهر من ادرانه وازاح الخرق البالية عن جسمه وكأنه (جنتلمان) لطيف لا شحاذ قذر .

وشرح المتصدق على صاحب الدار الحادثة كما جرت فخرج (الجنتلمان) وعاد مسرعاً يحمل قطعة الذهب فقدمها للرجل وقال له :

ـ اين القطعة النحاسية ؟

فقدمها له هذا فتقبلها وانحنى قائلاً : شكراً افندم !

* * *

وكنت ترى على جانبي جسر غلطه ما عدا الشحاذين ، باعة البرتقال والعنب والكمثرى والبرقوق والتين والبلح (التمر) والخيار وانواع الجوز والبندق واللوز وغيرها من المآكل والفواكه الشرقية الشهية اللذيذة .

وفي ذات يوم وصلت احدى صديقاتي من اميركا وهي لا تعرف لغة اجنبية وخطر لها ان تتنزه على جسر غلطه وحيدة . وكانت هذه النزهة لا تكلفها شيئاً لو عرفت كيف تضبط قدمها وتسير على العجين دون ان تلخبطه ، كما يقول ولكنها سارت مسرعة كما يفعلون في اميركا

حتى يخيل للانسان انهم في ميدان سباق لا في طريق مزدحم بالمارة .

فاصطدمت عن غير قصد طبعاً برجل يجر عربة من العربات المحملة حمصاً . ويجب ان تعلم اذا كنت لا تعلم ان هذه العربات كانت تنقلب عشرات المرات في اليوم لانها من الوزن الخفيف كما يقول المصارعون .

انقلبت اذن العربة وتناثر الحمص يميناً وشمالاً فاحتشد القوم كما هي العادة في احوال كهذه وبدأ البائع يصرخ في المرأة ويرهقها بالاشارات وهي لا تفهم شيئاً واما المارة فقد اجمعوا على ان الحل الوحيد لهذه القضية ان تدفع الاميركية ثمن الحمص وان يسدل الستار على المأساة .

وكان ممكناً ان تنجو المسكينة لو ان احداً يعرف الانكليزية او يستطيع ان يفهمها ما يريدون فقد ظلت واقفة مدة وعلت وجهها صفرة الموت فلما وجدوا انها لا تدفع شيئاً مدوا ايديهم ليضربوها فجمعت كل قواها وركضت بكل ما فيها من قوة وارتمت خائرة امام اول رجل من رجال البوليس .

وكثيراً ما كانت تقص على اصدقائها هذه القصة التي لن تنساها مدى الحياة .

وهناك حادثة اخرى لا تخلو من طرافة :

مر احد الاجانب على هذا الجسر ـ جسر غلطه ـ ورأى كومة من السمك المشوي اللذيذ فسأل الرجل عن ثمن السمكة فقيل له كذا . . . فطلب ان يشتري كل ما امامه من السمك ، فالتفت البائع للاجنبي وقال في ذهول :

ـ ولكن ، ماذا افعل يا افندي بعد ان ابيعك السمك كله .

وتقدمت الحياة العلمية في ايام السلطان عبد العزيز تقدماً ظاهراً ، فأسس السلطان عدة مدارس ابتدائية اضافها الى المدارس المجاورة للمساجد .

واخذ يضع نظاماً تسير عليه المدارس الابتدائية وكان ارقى ما قام به في هذا الصدد تنظيمه مدارس غلطه التي كانت تضم ابناء الطبقة المتوسطة من انحاء العالم كله .

وكان هذا المعهد تحت ادارة مدير فرنسي ، وكان برنامج الدروس من ارقى البرامج . وكثير من ساسة تركيا تلقوا علومهم في هذا المعهد الراقي . وكانت سياسة فرنسا في القديم كما هي سياستها في الزمن الحاضر ان تعمد الى نشر لغتها وثقافتها في الممالك الاجنبية .

وعلى هذا ففي سنة ١٨٦٨ بعد ان عاد عبد العزيز الى استنبول من زيارته لأوروبا اخذ ينفذ الخطة التي وضعها له نابوليون الثالث فافتتح هذه المدرسة وجعل اللغة الفرنسية لغة التدريس .

ويمكن ان يقال عن هذا المعهد انه كان تركياً تحت النفوذ الفرنسي . وكان يشبه المعاهد الاميركية في بعدها عن التعصب الطائفي وكانت فكرة الابتعاد عن الطائفية بدعة عصرية ولهذا قوبلت في بادىء الامر بشيء كثير من الهزء والسخرية وعلى الاخص من الروس ، الذين كانوا في ذلك الحين يريدون ان يلعبوا دوراً هاماً ، فكانوا يسعون لان يستميلوا المسيحيين في تركيا الى روسيا ، وكان يهولهم ان يروا الطلبة البلغار والارمن واليونان والاتراك واليهو

يدرسون معاً في كلية واحدة وتحت سقف واحد وبلغة واحدة هي اللغة الفرنسية وهذا ما دفعهم لان يطلقوا على هذا المعهد (جامعة بابل) لتعدد لغات الطلبة الذين يتلقون العلوم فيه .

وكان تعليم الفتيات حلماً من الاحلام اللذيذة ولكن لم يجرؤ احد على تحقيقه وان التاريخ سيظل يذكر المجهود الذي بذلته السلطانة (وليدة) ايام والد عبد العزيز في جمعها الفتيات وارسال من يلقي عليهن الدروس .

وسرعان ما اصبح من (الموضه) ان تتعلم النساء التركيات التعليم الابتدائي .

ويجب ان لا يغيب عن اذهاننا ان التعليم لم يرتق الا تدريجياً وببطء شديد حتى في اعرق الممالك فمثلاً في بريطانيا العظمى لم يعم التعليم الاجباري الابتدائي الا بعد سنة ١٨٧٠ .

وظهرت في القرن الخامس عشر ايام حكم محمد الثاني ، شاعرتان تركيتان زينب ومهري ، وان الادب التركي مدين لهاتين الشاعرتين الفذتين وقد دافعتا دفاعاً قوياً عن الجنس اللطيف وصرحتا بان امرأة تستحق التقدير خير من الف رجل (لا يستحق التقدير) .

وظهرت في ايام محمود الثاني ، في اوائل القرن التاسع عشر شاعرتان تركيتان بارعتان هما : ليلى هانم وفتوت هانم .

وفي اوائل حكم السلطان عبد العزيز افتتحت اول مدرسة عامة للفتيات التركيات على ضفاف البوسفور، ثم اظهر السلطان رغبة حارة في رفع شأن التعليم النسوي فاسس مدرسة عالية للفتيات فكأنه بعمله هذا قد سبق الزمن الذي يعيش فيه .

ولم توفق هذه المدرسة بادىء الامر توفيقاً كبيراً وكان اسمها يخيف التلميذات ويصرفهن عنها ! اتدري ماذا كانوا يسمونها ؟ . . . (دار المعلمات) في وقت كانت المتعلمة موضع الازدراء الشديد والتهكم المر فما بالك بالمعلمة .

وفي اول مرة حظيت بزيارة هذا المعهد ، وجدت بدلاً من مديرة المدرسة (افندي) قد ابيضت لحيته يجلس في وقار الشيوخ وجلال الكهولة ، على مقعد طويل وكان مظهره هذا يدل على منتهى التراخي والبلادة . وادارة المدارس كما نعلم وتعلمون لا تتطلب المدير او المديرة المتبالد بل الملتهب (الفرفور) . . .

وبدلاً من ان اجد جو المدرسة مرحاً رأيت السكون مخيماً اشبه بسكون الموت . وكأن الفتيات كن في حفلة من حفلات المآتم . فما وجدت فتاة واحدة تبتسم او فتاة واحدة تجري وراء زميلتها او تلاعبها . . .

وسرعان ما يتحقق الزائر ان هذا المدير الوقور يخنق الفتيات خنقاً ويضع الكمامات على افواههن .

وطبيعي أن مدرسة كهذه تقتل الفتاة قتلاً لا ترغب الفتيات في التعليم وكانت المدارس هي التي تنفر الفتيات منها .

كن يتهربن من المدارس لما يلاقينه من عذاب اليم يصبه عليهن هؤلاء الكهول الذين لا يرحمون شبابهن ولا يتأثرون بجمالهن . . . وكانت نظم التعليم متقلبة تقلب هذا الزمان الذي لا يبقى على حال .

فاين دار المعلمات بالامس من دور المعلمات اليوم ؟ حقاً ما

اعجب الزمان ! . .

واسس السلطان عبد العزيز مدرستين لتعليم الفتيات الفنون الجميلة .

زرت مدرسة منهما فوجدت الاساليب المتبعة في التدريس (فطرية)

شاهدت الفتيات يجلسن على الارض في صمت الشيوخ ووقارهم ! وطلب مني احد المعلمين ان اختار العلم الذي اريد ان (يمتحن) فيه امامي .

قلت : اريد ان اعرف مقدرتهن في الحساب .

وما ان نطقت بهذه الكلمة (الحساب) . . حتى امتقع لون الاستاذ واضطرب ايما اضطراب ولكنه تشجع وطلب من فتاتين ان تذهبا الى الغرفة المجاورة وتحملا اللوح الاسود .

وقال استاذ آخر :

ـ لقد اوقعتنا في ورطة فان الحساب ابغض العلوم الى قلوب الفتيات ومع هذا فسنمتحنهن امامك وطلب من الاولى في الحساب ان تنهض وان تقسم عدداً مؤلفاً من اربعة ارقام على ٢ .

وبعد تفكير طويل حلت المسألة ، ثم قدم لها مسألة جمع بسيطة فجمعتها بعد جهد ! واراد الاستاذ ان ينقذ الموقف فقال :

ـ خير لنا ان نحول الفحص الى الخط فانما هذه مدرسة من مدارس الفنون الجميلة .

قلت : لا بأس ، لا بأس ، وانا جد مغتبطة بهذا الاقتراح .

والواقع انه قد آلمني جداً ان ارى الفتيات يرتجفن من شدة الهلع والفزع خشية ان تغلط الاولى فتلحق العار بالصف كله . . . امام الاجانب !

وما ان سمعن كلمة (خط) حتى تبدلت وجوه الفتيات واخذن يتبسمن في وجهي وقامت كل منهن تعرض علي دفترها . والحق ان خطوطهن كانت جميلة واخترن عبارات ترحيبية رقيقة . ودق الجرس للصلاة فتنفسن الصعداء وانتهت الزيارة (على خير) !

وفي اواخر حكم السلطان عبد العزيز ظهر جلياً نفوذ فرنسا على الامبراطورية التركية .

وكانت سياسة نابليون الثالث كسياسة دزرائيلي ، احتفاظ تركيا بكيانها وصيانتها من التجزؤ والانحلال .

ومع ان السلطان اثناء زيارته لباريس لم يكن راضياً كل الرضى عن سلوك الامبراطور الفرنسي معه الا انه وجد ان زيارته على وجه العموم كانت بمثابة بروباغندا قوية لتركيا في باريس . . وان ما رآه في هذه الرحلة قد شجعه وشوقه لان يصبغ تركيا بالصبغة العصرية ويبث الافكار الغربية بين الاهلين .

وقد زاد اهتمام نابليون بتركيا بعد اختلاطه الشديد بعبد العزيز .

فعرض عدة اقتراحات من شأنها ان تحسن حالة البلاد من نواحي الحياة الاخرى غير العلمية ، في مقدمتها اعادة تنظيم الشؤون المالية وادخال التحسينات على الحياة الصناعية ومد السكك الحديدية .

اجل استطاعت تركيا بنفوذ فرنسا وما قدمته لها من مساعدات

مالية ان تمد عدة خطوط جديدة .

وامضى الباب العالي عقداً مع شركة فرنسية بلجيكية تقوم بمد السكك الحديدية ولكن هذه الاصلاحات توقفت كلها بعد ان اندحرت فرنسا في الحرب الفرنسية الالمانية (١٨٧٠ ـ ١٨٧١) .

وكان (دزرائيلي) يحاول حمل انكلترا على اتباع السياسة التي اتبعتها فرنسا ولكن جاء بعده غلادستون فشجع سياسة تجزئة تركيا وتقطيع اوصالها .

ان ابقاء الدولة تتمتع بالسلامة والهدوء ليس بالامر الهين وعليه فالسكينة التي تمتعت بها تركيا في عهد السلطان عبد العزيز كلفته كثيراً من المشقة وسيظل التاريخ يذكر له هذا العمل الخالد .

جلس السلطان عبد العزيز على العرش ، ووقع الاختيار عليه ليكون خليفة للمسلمين في سنة ١٨٦١ بعد نهاية حرب القرم بخمس سنوات . واستطاع ان يحتفظ بصداقة انكلترا وفرنسا طوال ٢٥ سنة .

ويجب ان لا يغيب عن اذهاننا ان الامم في ابان العلم تنمو وتترعرع ولهذا قويت حركة الاصلاح التي بدأها محمود الثاني وتغلغلت الحضارة الأوروبية على نحو ما في تركيا .

ومع ان السلطان عبد العزيز كان يريد ان يصبغ الامبراطورية بالصبغة الأوروبية الا انه لم يوفق الى حكم البلاد حكماً دستوريا وفشل في تنظيم حكومة تتمشى مع الدستور او ما يقرب من الحياة النيابية لانه كان من المستحيل في ذلك الحين من الوجهة النفسية جعل الشعب التركي يثق بالحكم الديمقراطي وقد طبع على الرضوخ والاستكانة .

وكان رجال الدين الذين بيدهم الامر والنهي يتحكمون في شؤون الدولة كما يشاؤون لا يريدون الاصلاح ولا يرغبون فيه ولهذا كان من الطبيعي ان يظهر مصلح عظيم كمدحت باشا الذي كانت البلاد في مسيس الحاجة اليه .

ومدحت باشا كما نعلم وتعلمون رجل امين الى ابعد حدود الامانة ، اداري حازم ، قدير ، ذو مواهب فذة ، استطاع ان يدخل اصلاحات لم يكن يحلم بها احد ممن قبله .

وكان سكان الاقاليم من جنسيات متعددة ، بل كان العنصر التركي احياناً يعد اقلية ولكنه استعان بزعماء وقادة العناصر والاجناس كلها وحاول اكتساب ثقة الشعب وجعلهم يزدادون محبة لحكومتهم التركية وكان لا يفرق في معاملته بين المسلم وغيره كما انه استطاع ان يكتسب ثقة السلطان فعينه صدراً اعظم ووزيراً للعدلية معاً .

وهو اول من فكر في تأليف محكمة مختلطة تجمع قضاة من المسلمين وغير المسلمين . ووضع دستوراً وبنى برلماناً ، كان يجتمع فيه من يمثلون اجزاء الامبراطورية المترامية تمثيلاً نسبياً عادلاً وهذا الدستور الذي وصل اليه يعد بلا جدال وثيقة من اشهر الوثائق التي لعبت دوراً هاماً في التاريخ التركي واعتمد عليها الغازي مصطفى كمال باشا وجماعته عند وضع الميثاق القومي والدستور الحديث للجمهورية التركية العصرية .

* * *

ظهر مدحت باشا في وقت كانت الحركة الفكرية في تركيا على اتم نشاطها وكان الاتراك سكان المدن منهم او سكان القرى والارياف

لا يرغبون في غير التجديد ولا يطمحون الى غير الاصلاح ومجاراة الدولة الأوروبية .

ولم يكن السلطان عبد العزيز يرحب بافكار كهذه ، ولا يظهر ادنى استعداد لقبولها فقد عاش لسوء حظه في (القفص) ٢٠ سنة قبل ان ينصب سلطاناً .

نعم قضي ٢٠ سنة في السجن وكان الاولى ان يقضي هذه السنين الطويلة في دراسة احدث النظم السياسية في زمانه . وكانت استنبول حتى نهاية السلطان عبد العزيز كما كانت قبلاً من اهم المراكز التجارية في العالم كله .

كانت ترد اليها السفن من الشرق ومن الجنوب مثقلة بالبضائع والسلع المتعددة .

كانت روسيا واسيا وفارس ومصر وسوريا وبلاد العرب متصلة بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً عن طريق القوافل وكانت تتاجر مع الشرق الادنى .

وكان بالامكان ان يطلق على العاصمة الامبراطورية التركية (استنبول) اسم (البنك العام) خصوصاً وان النقود التركية كانت متداولة في ممالك عديدة من انكلترا الى الهند . وبعد افتتاح قناة السويس وابتداء المواصلات البرية عن طريق السكك الحديدية تطورت الاحوال المالية تطوراً عجيباً واصبحت الدور التجارية لا تستطيع الاستغناء عن الخبراء الماليين .

وعلى هذا اصبح من الضروري ان تسير مالية القصر على اسلوب خاص غير الاسلوب العتيق . وكان سعي السلطان للاحتفاظ

٦ -

بجيش مدرب تدريباً تاماً ، وجهوده التي بذلها للمحافظة على قوته البحرية بحيث يصبح الاسطول التركي ثالث اسطول في العالم ، كل ذلك غير كاف ما دامت الادارة غير منظمة .

ويعلم الله ان السلطان عبد العزيز لو ادرك العلة الحقيقية واسرع فعهد باعماله المالية الى جماعة من الماليين المختبرين الفنيين لكان بالامكان ان يخففوا العبء الثقيل الذي كانت ترزح تحته البلاد ، وكان بالامكان تخفيض اجل الدين العام . وفي الوقت الذي كان السلطان عبد العزيز يتوق للاصلاح ، وفي الزمن الذي تزداد فيه حركة الاصلاح تأصلاً وقوة في الوقت عينه كان شغوفاً بالنساء ينزوي الى حريمه ويقضي الوقت بينهن .

وكانت الساعات التي يقضيها معهن تنسيه الاصلاح وجماعة الاصلاح فلا يبالي بعدها بغير الوصال . اجل ، كانت كلما علت الاصوات طالبة منه ان (يسترجل) تهالكت نساء السلطان في التودد اليه ، للاحتفاظ بالمكانة التي وصلت اليها كل واحدة منهن ! . ولكن لماذا نظلم السلطان كل هذا الظلم فاي رجل في الوجود لا يلين قلبه اذا رأى تسعماية امرأة يبكين ويتضرعن اليه ؟

وهل ننسى ان الخطوة الاولى من الاصلاح كانت ترمي الى انقاص عدد هؤلاء الفاتنات ؟ . اذن فلا ريب من ان نساء السلطان كن اعداء الاصلاح ، والعقبة الكأداء في طريقه وكثيراً ما تكون الزوجة سبباً في فشل زوجها ، فما بالك في تسعمائة امرأة يتنازعن سيادة قلب واحد .

وهل من قلب غير قلب عبد العزيز يسع تسعماية امرأة ؟

كن على يقين ان هذه الفكرة (الشيطانية) التي بدأت تتغلغل

في النفوس ستقضي على اماهن وامانيهن لا محالة ، اذن فليتكاتفن وليتضافرن على وقف حركة الاصلاح والسبيل الى ذلك ان يغالين في التودد الى السلطان ويكثرن من المؤامرات والخطط الجهنمية . . . وقد نجحن !

وكيف لا يتهالكن على الكيد للمصلحين وهن يعلمن قبل غيرهن ان السلطان يصرف عليهن من مال الامة مليون ليرة انكليزية سنوياً في ايام النحس والعسر فما بالك بسنوات اليسر والرخاء ؟

والويل للموظف المسكين الذي كان يحاول ان يقف في وجه هؤلاء الفاتنات فينادي بفكرة الاقتصاد (الممقوتة) . . . لم يكن نصيبه غير اتفاق تسعماية امرأة على الكيد له . تسعماية امرأة يكيدون لرجل واحد ، ويشين برجل واحد فاي رجل يستطيع ان يقف امام شلالات الغضب هذه ؟

اليست وشاية امرأة واحدة كافية للقضاء على رجل ؟ كن اذن ينجحن في كل مرة في القضاء على كل غيور . وكان كل متحمس للاصلاح ، تلصق به تهمة خيانة الدولة ، وما اقساها من تهمة بل ما اشنعها من جناية ، ثم يرسل الى قبره سراً . وكانت الاشاعات الكثيرة تتردد عن اسراف الغادات الفاتنات . وكثيراً ما كانت الاخبار الكثيرة تصلنا عن اسراف احداهن وهي شركسية حسناء تمتاز بسحر العينين وفتنة الشعر وفتنة القوام ، فكان من الطبيعي ان يغرم بها السلطان هاوي النساء وكان من الطبيعي ايضاً ، وهو المعروف بالتبذير والاسراف ، ان يغدق عليها من اموال الشعب بسخاء عظيم .

كانت هذه الفاتنة تقصد المخازن الفرنسية الكبرى في حي (بيره) في عربتها الخاصة السلطانية تشتري لها ولصديقاتها الاثواب

الحريرية الغالية والحلى الثمينة.وتعود متباهية لا تسعها الدنيا ملاقية في الذهاب والاياب من التكريم والترحيب ما تلقي ان لم يكن لفرط جمالها فلمالها على الاقل .

والمال مال الامة فانظر كيف يضيع !. اجل فان الالوف التي تنفق على هذا السبيل كانت تجبى من الشعب بالكرباج .

وكان من الطبيعي ان يئن الشعب التركي من الضرائب الثقيلة .

* * *

كانت نفقات القصر في ازدياد ، سواء ما اختص منها بالسلطان او الحريم .

وكان بناء القصور والاكشاك وغرس الحدائق يستنفذ المقادير الكبيرة من اموال الدولة فاضطر السلطان عبد العزيز وشقيقه عبد المجيد الى الاقتراض من لندن وباريس .

وكانت فائدة هذه الديون لا تدفع الا بعد اقتراض اموال جديدة .

واستمرت الحالة على هذا المنوال حتى تضخمت ديون الدولة فبلغت ٢٠٠ مليون ليرة انكليزية . ولكن حدث في سنة ١٨٧٥ حادث اهاج الدوائر المالية كلها في اوربا . . . ثم اعلنت تركيا رفضها سداد اي قرش من هذه الديون المتراكمة وابت الاعتراف بها .

وكانت سمعة الاسهم والسندات التركية طيبة جداً وكان الماليون في العالم كله يجدون في تركيا خير الاماكن لاستثمار اموالهم فلما حلت

هذه الكارثة المالية والغت تركيا الديون الاجنبية كلها دفعة واحـدة خسر عدد كبير من الماليين الانكليـز والفرنسيـين المبالـغ الطائلة وفي مقـدمتهم اللورد ستراتفورد دي ردكليف سفير بريطانيا في استنبول .

وانتشر خبر الغـاء الديـون فعم الحزن العميق وكـان هذا العمـل من البـواعث التي ساعـدت فيها بعـد على تكـوين ادارة الديـون العامـة تحت رقابة هيئة دولية .

الفصل الخامس

حظيت بشرف التعرف الى شيخ الاسلام وهو عالم مثقف وكنت اعجب بافكاره العصرية ايما اعجاب وقد اهداني مؤلفاً من مؤلفاته .

وكانت كليتنا معملاً لتخريج الزوجات الصالحات للاتراك المثقفين فكانت الطالبة لا تغادر الكلية حتى يكون قد تنافس طلاب الزواج في طلب يدها .

وكنا ندرس كل العلوم باللغة الانكليزية فرأينا ان نخصص ساعة لدراسة اللغة التركية وطلبت من صديق لي ان يختار استاذاً لهذه اللغة وكنت في ذلك الحين مديرة مدرسة اسكداري .

ثم جاء الاستاذ وقد ارتدى سترة مبطنة بالفرو مع اننا كنا في فصل الصيف وسأل الطالبات عن مدير المدرسة فأخذن يتغامزن عليه واشارت احداهن الى غرفتي فجاءني الرجل فرحبت به ، فقال :

ـ اين مدير المدرسة يا سيدتي ؟

ـ اني مديرة المدرسة .

ـ مستحيل ! . فالمرأة لا يمكن ان تدير مدرسة !

ورأيت ان الافضل عدم مجادلته وادركت على الفور مبلغ عقليته وادراكه فابدلت الموضوع على الفور قائلة :

ـ واي مبلغ يكفيك ؟

فاخذ يفكر ويفكر ، ثم طلب مبلغاً خفضته الى الربع او الخمس لا ادري طمعاً بالتخلص منه ، ولكنه قبل . الم نقل ان المساومة تتغلغل في الحياة التركية فلم اذن لا تكون المساومة حتى في تقدير رواتب الاساتذة ! . . وعلى كل فقد قدمت له الراتب الذي يستحقه . واما الطالبات فقد ابدين له كل احترام في الدرس الاول ولكن ما كاد يبدأ الدرس الثاني حتى جاءني غاضباً وصرخ في وجهي : ـ لا استطيع ان اضبط الصف . . .

فطلبت منه الانتظار في غرفتي وذهبت بنفسي لارىٰ كيف تجري الامور ووقفت فتاة جريئة وقالت :

ـ تطلبين منا ان نصارحك بكل شيء فانت تحبين الحقيقة دائماً .

ـ هذا ما اشتهيه من اعماق قلبي !

ـ اذن فسأقول لك كل ما جرى مع هذا الاستاذ : لقد صرف الدرس كله في الصرف والنحو ولم يترك لنا وقتاً للمطالعة . جلس في زاوية من زوايا الغرفة واغلق عينيه . . . وصرف الساعة كلها يصرف افعال واسماء ، والبنات يضحكن لانهن لا يفقهن شيئاً مما يقول .

فاكدت عليهن ضرورة احترامه ثم خرجت القي عليه بعض الدروس في فن التربية . وكنت ابقى معه معظم الوقت .

وكانت دور الكتب قريبة من المساجد يوم كانت استنبول في اوج

مجدها ففيها ما يقرب من الف مسجد منها ٢٠ مسجداً سلطانياً . ولا ادري كم كان عدد دور الكتب في ايام عزها . ولكن الذي اذكره اني احصيت عددها سنة ١٩١٣ فكانت ٤٠ داراً فخمة غير مجموعات الكتب الاخرى التي في دور اصحابها .

ولقد ادخل مصطفى كمال باشا عدة اصلاحات على دور الكتب . ففي سنة ١٩٢٨ كان عدد مجموعات الكتب في استنبول وحدها ٥٠٠ مجموعة كلها كتب قيمة قديمة . ومما يجدر بالذكر في هذا الصدد ان السلاطين كانوا يعنون بتأسيس دور الكتب . واراد احد السلاطين احياء ذكرى امه فبنى داراً للكتب بالقرب من قبرها وهو يقول :

ـ (ان رائحة العلم الذكية تعطر روح امي في الجنة) . وكان كل مسجد لا يخلو من دار كتب خاصة به . وكانت هذه الدور مملوءة بالوسائد المستديرة والمربعة للجلوس . وكان القراء يضعون كتبهم على كراسي واطئة بلا مساند . اما ارضية المكتبة فتفرش عادة بالسجاد الثمين وكان لا بد من نزع الاحذية قبل الدخول من الباب الخارجي . وكانت الكتب خطية وكل مخطوطة توضع في صندوق خاص وتلف لفاً محكماً زيادة في صيانتها . وكثير من كبار الاتراك كانوا يؤسسون دور كتب خاصة بهم . وقامت بتأسيس دور للكتب اربع اميرات بينهن ام السلطان عبد العزيز .

وكان كل سلطان يحتفظ بمجموعة من المخطوطات الثمينة ينقش عليها اسمه وخاتمه ويحتفظ بسجل لها .

اما قيمة هذه المخطوطات فكانت ترجع الى اشياء كثيرة منها : ندرة المخطوطات وعمرها ، ومادتها وما فيها من زخرف وزينة وجمال

الغلاف الخارجي .

وكـانت تدفـع المبالـغ الطائلة في هـذه المخطوطـات وتشترى بـاي ثمن من القاهرة او بغـداد او دمشق او الاسكندريـة . وهي بالعـربية او الفـارسية او التـركية وكـانت معظم المجلدات مـزينة زينـة فارسيـة فنيـة بـديعة مـوشاة بـالذهب غـالباً ولهـذا كانت تعـد ثروة مـالية كبيـرة فوق قيمتها الادبية .

وجـاء الاتراك ببعض الكتب الثمينـة من الافغان . امـا الغـلاف فكـان دائماً من الجلد الثمـين المحلى بـالذهب والفضـة وكانت غـلافـات الكتب ترد عادة من اصفهان من اعمال فارس .

ومن الـطف ما سمعتـه عن القضاة ومبلغ اعتمـادهم عـلى الكتب في تقرير مصير المتهمين الحادث الآتي :

طلب احدُ الحكام الى قـاضي ان يصطحبـه الى اقليم من الاقاليم الداخلية ليترأس محكمة من المحـاكم فقبل ولم ينسَ طبعـاً ان يأخـذ معه كتـاب القوانـين وغير كتـاب القـوانـين . وحـدث انهما حـاولا ان يعبـرا مجرى من المجاري فسقـطا وفقدا مـا يحملان من امتعة فرفض القـاضي مواصلة لاسفر فسأله الحاكم مذهولاً :

ـ ماذا جرى ؟ ألم نسلم من الموت ؟

ـ هذا صحيح . ولكني اغرقت كل علمي في البحر ! . . .

* * *

وكنـا في (اسكـدار) في ربيـع سنـة ١٨٧٦ ونـحن نـجهـل التبـديلات التـاريخية التي كـانت يومئـذ رهن الغيب وان كنا نحس مع

الاهلين ، بـان هنـاك روح امتعـاض تتغلغـل في نفـوسهم من جـراء الاسراف الشائن الـذي تئن منه البـلاد انيناً مـراً . ولكن الاهلين كانـوا يفضلون كتم عـواطفهم لانهم يـرون ان اظهـار سخـطهم يعـرضهم للموت بلا ريب .

شاهدنـا صفاً طـويلاً من السفن الحـربية يمتـد من اعالي البسفـور الى بحـر مرمـره وكانت تقـوم بحركـات استعـراضيـة لالقـاء الـرعب في قلوب الاهلين ولاظهار عظمة السلطان وجبروته . وكان السلطان يكـثر اطـلاق المدافـع في ايام الجمعـة وفي الاعياد وعنـد كل تبـديـل في نـظم الحكم ليلقي الروعة في قلوب الاهـالي ويشعرهـم بنفـوذه وبانـه لا ينتقل من قصـره الا وسط مظاهـر التبجيل والاكـرام . وفي مقـدمتهـا اطـلاق المدافع . . .

والآن اذا اردنـا ان نحكم على السلطان عبـد العـزيـز من وجهـة النظر القديمة لا نستطيـع الا ان نقرر انـه نجح نجـاحاً بعيـداً في الحكم وكـان موفقـاً في حياتـه التوفيق كله وكيف لا يكـون مـوفقـاً وقـد لازمـه السعـد كل ايـام حياتـه وعاشت البـلاد في ايـامـه تتمتـع بعصـر سـلام وهـدوء وطمأنينـه ! وكيـف لا يكـون مـوفقـاً وقـد اظهـر روحـاً وثـابـة وطموحاً نحو التقدم ومجاراة الدول الاوربية .

اجـل ، لقد زار السلطان عبـد العـزيـز لنـدن وبـاريـس واجتمـع بساستهـا وتلقى الـدروس عنهم وحـاول جهـده ان تكـون الصـلاـت الدولية بين تركيا وانكلترا وفرنسا خير الصلات وامتنها .

لقد احدث السلطان عبد العزيز اصلاحـات جوهـرية في القضـاء ونـظم الجيش تنظيـماً دقيقاً ، وادخـل عدة قـوانين مـدنيـة ، وحـاول ان يعامل الاجناس والطوائف كلها معاملة تشف عن اخـلاق كريمـة . كان

سلطاناً يشرف السلاطين في عدالته وعدم تحيزه واستطاع مجلس الدولة الذي كان تحت رئاسة مدحت باشا ان يعيش ثماني سنوات . ومع هذا كله لا نستطيع ان نتغافل عن روح التمرد التي بدأت تظهر . روح السخط التي القيت بذورها في داخل تركيا وخارجها .

اجل كانت روسيا والنمسا تدسان دساً متواصلا لتركيا وتكيدان لها في الخفاء . وكان القائد الروسي « أجناتيف » أعظم رجل في روسيا إشتهر بالكذب حتى أطلق عليه الأتراك « أبو الأكاذيب » وكان يصرف كل جهوده لبذر بذور الشقاق وإثارة الفتن بين تركيا وروسيا فلا يهنأ له بال ولا تقر عين إلا إذا وجد كلًّا من روسيا وتركيا في خصام مستمر وشقاق دائم .

وكان الكونت « اندراسي » المستشار النمسوي في خوف دائم ان تتعرض بلاده للخطر بعد ان تعمل الدول على تجزئة تركيا والتهامها .

وكان سكان البوسنة والهرسك يتسلحون ويتأهبون لشق عصا الطاعة واحداث فتنة واسعة النطاق .

اما اهتمام « بسمارك » بشؤون الشرق الادنى فقد اخذ في الازدياد حتى انه دعا المستشارين النمسوي والروسي الى برلين واتفق معهما على ان يطلبا من الاقاليم البلقانية تأليف لجنة مشتركة لدرس الحالة دراسة دقيقة وان يشترطا بقاء سكان البوسنة والهرسك على اتمام الاهبة للقتال ويحتفظون باسلحتهم مدة شهرين فاذا لم ينجز السلطان هذه الاصلاحات التي قد وعد بانجازها فليس من سبيل اخر غير التدخل الدبلوماسي في شؤون تركيا الداخلية . فكان هذا « الانذار » النهائي الذي يعرف في التاريخ « بمذكرة برلين » سبباً في ارتياح واغتباط كل من فرنسا وايطاليا ولكن قراراً كهذا لم يترك اي اثر فان السلطان عبد العزيز ما كان ليقدم على شيء الا بعد ان توافق

عليه بريطانيا العظمى .

وكان دزرائيلي في ذلك الحين هو صاحب الحول والطول فرفض الاذعان لمشيئة الدول التي تحاول التهام تركيا وتتصرف في شؤونها دون اخذ رأيها اولا ولكنه مع هذا ارسل اسطولا الى خليج بسيكا الواقع في نهاية الدردنيل وبقيت السفن البريطانية نحواً من سنتين تشرف على الامور وهي على تمام الاهبة للدخول الى مياه البسفور اذا كانت الامور تستدعي اتخاذ اجراءات استثنائية ارهابية .

وكانت احوال البلاد المالية المضطربة هي السبب الرئيسي في عدم رضى الشعب التركي وتذمره .

واية امة في الوجود تقبل ان تثقلها الديون فقط : مئتان وخمسون مليونا من الجنيهات الاسترلينية !

ولو كانت تركيا قد استدانت هذا المبلغ الجسيم لتقوم بالمشاريع الكبرى التي تعود عليها بالنفع لهان الامر ولكنها استدانت لتحيي تسعماية امرأة في الحريم .

وكيف لا يثور الشعب التركي وهو يرهق كل يوم بضرائب جديدة ثقيلة لتنعم الغواني وليسرفن ما شاء لهن الاسراف ؟

اذن ترى معي ان السلطان عبد العزيز لم يعد صالحاً للحكم وان الاتراك كانوا على حق عندما ثاروا يطالبون بتنصيب سلطان اخر غير شاكلة عبد العزيز .

كان العلاج الوحيد ان يتنحى عبد العزيز ويترك مكانه لرجل اقدر منه على تحمل اعباء الملك .

رجل غير مثقل بالنساء بعيد عن دموعهن .. وقلبهن ..

يتصرف بكل قواه لاصلاح ما افسده عبد العزيز وينتشل البلاد من الهاوية السحيقة التي كانت ينزلق اليها الشعب التركي .

وكانت اول خطوة حقيقية عملية في الاصلاح ان قصد وزير الحربية التركية حسين عوني باشا مع مدحت باشا شيخ الاسلام وعرضا عليه حالة البلاد السيئة وكان شيخ الاسلام فطناً حكيما ففهم ما جاءا من اجله ولكنه اراد ان يسمع الشكوى منهما فسألهما عن الغرض الذي جاءامن اجله فقال مدحت :

ـ جئنا يا مولانا لنرى اذا كانت الشريعة الاسلامية السمحاء تبيح عزل السلاطين عند الحاجة القصوى ؟ . .

فهز شيخ الاسلام رأسه وقال في وقار الشيوخ وجلالهم :

ـ هذا جائز في الاحوال الإستثنائية النادرة ، وفي الظروف القاهرة ثم تطلع الى وجه مدحت باشا وجعله يشعر انه قد ادرك ما يرمي اليه بسؤاله .

كان شيخ الاسلام يعلم قبل غيره من الاتراك ان مدحت ترأس مجلس الامة وانه انتهى من « مسودة » الدستور ، هذا الدستور الذي لا يذكره التاريخ الا مقرونا باسم مدحت .

كان شيخ الاسلام يعتقد بصواب آرائه ويرضى عنها وان كان يراها ارقى من العصر الذي يعيش فيه . وكيف لا يرضى شيخ الاسلام وكل ما جاء به مدحت باشا لا يتعارض مع السلطة الدينية ولا ينال من رجال الدين بل يرفع شأنهم .

اجل كان يريد مدحت باشا ان يوجد مجلساً قومياً صحيحاً يمكن ان يطلق عليه بحق « البرلمان التركي » تمثل فيه الاجناس والطوائف

المتعددة تمثيلا نسبياً عادلاً يكون اعضاؤه مسؤولين عن نفقات الدولة العامة ، بدلاً من ان تترك الدولة المالية في ايدي الغواني وحريم السلطان خصوصاً بعد ان ظهر ان دموع الفاتنات تنسي عبد العزيز ديون الدولة ! وقبلاتهن تضيع انين البؤساء الذين كانوا يرهقون شر ارهاق بالضرائب الفادحة .

بل كانت جلساته معهن تنسيه الخطر الجسيم المحدق به . تعميه عن شبح الموت الذي ينتظره . .

تلاشى مجد عبد العزيز وسط الآهات والتنهدات وتبخرت ثروة تركيا . ثم ختمت حياته خاتمة لا يرضاها اشقى الناس لانفسهم .

. . اجل فقد انتحر عبد العزيز . .

* * *

كان مدحت باشا يريد ان يذهب في تسامحه مع الطوائف المتعددة الى ابعد مدى ، فضمن لغير المسلمين ان يمثلوا تمثيلا عادلا في الجيش .

واننا لنتساءل من اين لمدحت باشا كل هذه الجرأة العجيبة ؟ وعلى من كان يعتمد ؟ على رجال الدين والطلبة ! . نعم على رجال الدين والطلبة !

اجل ، وانك لتقلب صفحات التاريخ القديم منه والحديث ، فلا تجد حركة واحدة من هذه الحركات الكبرى التي اهتز لها العالم باسره الا وقد قامت على اكتاف رجال الدين وبفضل سواعد الطلبة القوية ! !

رجال الدين والطلبة هم الذين يستهدفون دائماً للاخطار الجسام وهم اول من يضحي واول من يقاسي العذاب صنوفاً والاضطهاد الوانا .

ولم يكن رجال الدين الاتراك والطلبة اقل حمية من غيرهم من رجال الامم الذين شقوا لبلادهم مجداً من وسط صخور الصعاب وجبال العراقيل !

اجل كان رجال الدين الاتراك طوال القرن التاسع عشر ارقى طبقة مستنيرة في تركيا . ويقول السير ادون بيرز في الدلالة على نفوذهم انه حدث في اثناء الهياج الذي نشب في ربيع سنة ١٨٧٦ ان اوقف آلاف من رجال الدين موظفاً من اكبر موظفي الدولة في الطريق وطلبوا منه طرد موظفين كبيرين يقاومان الاصلاح ، فانصاع الموظف الكبير للشعب وقصد معهم قصر السلطان وعرض الشكوى فقبل الطلب فوراً وطرد الموظفان وحل مكانهما موظفان آخران وكان مدحت باشا واحداً منهما . لكن معظم الموظفين القدماء كانوا يوجسون خيفة من دستور مدحت ولا يرحبون اي ترحيب بافكاره العصرية وتساهله الشديد مع الطوائف غير الاسلامية .

* * *

ليلة حالكة الظلام ، والمطر ينهمر انهماراً شديداً كالسيل الجارف ، ولم يكن من الهين مجابهة امواج البسفور الغاضبة الهائجة . وكان في قارب صغير لا يسع غير ثلاثة اشخاص « مدحت باشا وزير الحربية وحسين عوني باشا واحد الخدم » وكان مدحت باشا وحسين عوني باشا قد امرا باعداد عربة تنتظرهما على الشاطيء ولكنهما لما وصلا لم يجدا شيئاً .

وليتصور القاريء حالة هـذين المقتحمين ومـا يكون من مصيـرهما لو عثر احد عليهما واقفـين ينتظران عـربة في منتصف الليـل . . في ليلة ماطرة .

وماذا عساهما يقولان . . الم تكن تهمة التآمـر على سـلامة الـدولة اول ما يتبادر الى الذهن ؟ وهل كانت عقوبة التآمـر على سـلامة الـدولة غير القتل ؟ . . ولكن الابطال الذين خدموا بـلادهم كانـوا اكثر النـاس اقتحـاما ، بـل كانت جـرأتهم السبب الرئيسي في نجـاحهم ، وويل لمن يفشل في منتصف الطريق منهم اما الخادم فقـد ترك سيـديه واسـرع على الفـور ليبحث عن عربتـين وهو يتلمس الـطريق وسط الظلام والامـطار الغزيرة . .

وجـاء اخيـراً الخـادم بعـربتـين بعـد ان مـلأ جيـوب الحـوذيـين بالذهب . . وويل لمن يقع فـريسة للحوذي في ليلة مـاطرة . . ركب في العربة الاولى مدحت باشا وطلب من السائق ان يسـرع الى مركـز وزارة الحربية التركية في استنبو

وأما صديقه فقد قصد قصر ضوبله باغجه حيث يقيم السلطان .

والبنـاء الذي قصـده مدحت بـاشا شيـده عبد العـزيز ذاتـه قبـل تاريخ تلك الليلة التاريخية بست سنوات .

عندما ندرس التاريخ التركي يأخذنا العجب اذ نرى انـه في ذات الشهر الذي انتحر فيه السلطان عبد العزيز وهو شهـر ايار (ولكن بعـد مـرور ٣٢ سنـة عـلى انتحـاره اي في سنـة ١٩٠٨) لاقى عبـد الحميـد الثاني عين المصير الذي لاقاه عمه ! وللسبب عينـه . . تظهـر في الاثنتين رغبـة الشعب الحـارة في الاحتفـاظ بـدستـور البلاد والسعي لادخـال الاصلاحات حتى تجاري الدول الكبرى .

اجل ، ان التاريخ يعيد نفسه !

ولنتحدث قليلاً عن حسين عوني باشا ومدحت باشا فهما من الشخصيات الهامة في التاريخ التركي .

كان موقف مدحت باشا تلك الليلة في منتهى الخطورة ولم يكن يملك حق اصدار الاوامر للجيوش ولكنه اظهر منتهى الجرأة والاقتحام فقصد ادارة الحربية في منتصف الليل وحيداً لا يقف معه صديق مبلل الجسم كانه قد خرج من الحمام دون ان ينشف بدنه ، فكانت ليلة يتدفق منها المطر غزيراً جداً وكان قد استعد لقصة يرويها وكلام يقوله ولكنه لا يدري هل يقبل الاقتراح الذي سيعرضه او لا يقبل وكان في قبوله المجد وفي رفضه الموت الاكيد ! . .

ولكن مدحت قذف بالاقتراح في وجه القائد العام للجيوش التركيه واستطاع استمالته بحذقه وذكائه .

اما الاقتراح الخطير فهو ان يأمر القائد العام الجيوش التركية بالتأهب والوقوف في شكل مربع انتظاراً لمجيء السلطان مع وزير الحربية !!

وان يخطب مدحت في الجنود فيوضح الاسباب التي دعت لاتخاذ الاجراءات الاستثنائية بمثل هذه السرعة . ثم يعلن عزل السلطان عبد العزيز !

ولنعد الان الى حسين عوني باشا لنرى هل قام بمهمته او لم يقم . . وكيف قام بها ؟ . .

قصد وزير الحربية عوني باشا مع فرقة من الجنود قصر السلطان واحاطوا به من كل جانب دون ان يحدث جلبة كبيرة ثم قرع الابواب

وارسل كلمة للسلطان بانه قد اصبح « سجيناً » والأفضل ان يسلم نفسه بارادته بدلا من ان يلقى القبض عليه ويعامل معاملة لا يرضاها لعظمته وطلب منه ان يجيب فوراً « وبنفسه » والا تعرضت حياته فعلا للخطر .

واوقظ السلطان وسلم هذه الرسالة في منتصف الليل فاخذ يفرك عينيه وهو جد مذهول ، واحجم عن تسليم نفسه ولكنه فكر في الامر فهاله الموت فاستسلم وهو يقول :

ـ هكذا تكون قسمتي ؟. ما اقسى الدهر !! ما اقساه !..

وكان يقول هذه العبارات وهو يشعر بحزن عميق وتأثر شديد !

ونزل السلطان وسار مع وزير الحربية واجتمعا بمدحت باشا والقائد العام للجيوش التركية وكانت ساعة رهيبة . .

كانت الجيوش مصطفة في مكان فسيح في وسط الليل على شكل مربع فوقف مدحت باشا يخطب ويخطب . . . والسلطان يسمع الحديث صامتاً . . . ذكر مدحت الاسباب التي دعت الى اتخاذ هذه الاجراءات الاستثنائية حفظاً لسلامة الدولة . اما الجنود فلم يتمردوا ولم يظهروا اي نوع من المقاومة !

وعلى هذا تم عزل عبد العزيز . . . وقبل ان ينشر الفجر نوره الجميل كان السلطان قد امضى صك التنازل عن العرش !. تم التنازل دون ان تراق نقطة من الدم او تطلق رصاصة واحدة !.. كانت ثورة سلمية . . .

وتمكن مدحت باشا من اقناع رجال البحرية فكان الاسطول راسياً امام القصر . وكان من الضروري قبول رجال البحرية التدبير

ليصبح قرار الجيش نافذاً وفي الصباح اخذ السلطان الى قصر من قصوره وسجن في غرفة من غرفه ، وجاءت امه تطل عليه من الخارج وتبكي ، فطلب منها ان تحضر له مقصاً صغيراً ليقص اطراف لحيته . فعادت تحمل لـه المقص الـذي يـريده . وبعـد اربعـة ايـام وجد ميتاً ! . . . انتحر عبد العزيز ! . . انتحر في كرسيه بقطع شريان من شرايينه . واذيعت اخبار عزل عبد العزيز واعتلاء مراد للعرش مكانه . فقوبلت هذه الاخبار بالارتياح في كل استنبول .

اما الجرائد التركية فخصصت صفحاتها لكيل المديح لمراد والرفع من شأنه . وكانت قد قامت له بالدعاية العريضة قبل تلك الليلة باسابيع كثيرة .

واستيقظنا في الصباح على صوت المنادي يصرخ بصوت كالرعد ويضرب الرصيف الحجري الذي يسير عليه بهراوة لن تجد اغلظ منها حتى لقد احسسنا ان الدار تهتز ، فقمنا مذعورين من فـ[illegible] امتلكنا اشد الرعب والفزع لشدة هلعنا لم نفهم [illegible] يقوله ولكننا فهمنا انه يقول :

ـ مات جلالة السلطان عبد العزيز . فالله يرحمه

ولم اكن قد سمعت بعد عن عزل السلطان عبد العزيز وكانت هذه هي الطريقة للتي يذيعون بها اخبارهم الهامة ، وما افظعها ! . . بل ما اقبحها ! يذيعون عزل السلطان عن طريق المنادي ! . . طريقة لم اسمع بها قبلاً ولكنها [illegible] في تركيا فقد مثل هذا الدور امامي اربع مرات في اثناء اقامتي في استنبول . عاصرت خمسة سلاطين عزل منهم اربعة !

وانه من العجيب حقاً ان لا تتأثر المدينة من حادثة خطيرة

كهنه . وليس ادل على عدم تأثر استنبول من ان كليتنا قد واصلت الدراسة في اليوم عينه . وكانت الشوارع هادئة والناس يقصدون مخازنهم كالعادة كأن لم يحدث شيء والواقع ان قصر السلطان كان عالماً قائماً بذاته مستقلاً عن الشعب الم نقل ان قصور السلطان كانت تحوي مئات من (السراري) او المحظيات ومئات عديدة من الموظفين والخدم ؟

حقاً لقد اوقعت وفاة السلطان الفجائية هذه آلافاً من الناس في الاضطراب وكانوا يتساءلون .

ـ وما مصير زوجات السلطان ؟

وكأنما جهلوا ان الفاتنة موفقة سواء كانت في تركيا او غير تركيا . وسواء كانت في عصر عبد العزيز او غيره . فما بالك اذا كانت الفاتنة من زوجات السلطان . اجل ، لم يكد يوارى السلطان التراب حتى عاد ضباط الجيش ـ ويجب ان لا ننسى ان لهم مكانة خاصة في قلوب نساء العالم كله ـ يتقاسمون الغنيمة الباردة الثمينة ويتهالكون على اختطاف التسعمائة امرأة ! . .

ولم تمض ساعات حتى كن جميعاً في عداد المتزوجات ولم يعدن من الارامل اما الموظفون فقد فتحوا عيونهم في الصباح بعد ان قاموا متراخين في العاشرة وبعد العاشرة كعادتهم فوجدوا ان مراكزهم التي تمتعوا بها طويلاً قد اختفت بانتحار السلطان ! فضربوا كفاً على كف واستسلموا لمشيئة الله ! . . .

وبدأ الناس يتهامسون هل يستطيع رجال الجيش والبحرية ان يتصرفوا بالبلاد تصرفاً حكيماً يبعد عن وطنهم المقدس شبح الحرب الاهلية ؟ . والثورة الدموية . اما الشعب التركي فقد كان راغباً في

هذا التبديل التاريخي كل الرغبة فقد مل عبد العزيز وحياة عبد العزيز . واراد الناس ان يروا وجهاً جديداً ! . . كانوا على بكرة ابيهم يطلبون الاصلاح . . وتضايقوا من حياة الاسراف . . وارهقتهم الضرائب ولم يكن لهم من حديث غير موت السلطان . . . هل قتل ؟ ام انتحر ؟ . واجتمع تسعة عشر طبيباً وقرروا بالاجماع بعد رؤية جثة السلطان انه انتحر ولم يقتل .

واني اعتقد انهم صادقون في حكمهم هذا ويزيدني يقيناً ما سمعته من سفير بريطانيا العظمى في تركيا وقال لي السفير :

ـ تحدثت ذات يوم مع السلطان عبد العزيز عن نابليون الثالث وتنازله عن العرش (قسراً) فتألم السلطان ألماً شديداً وقال :

ـ هل يقبل رجل في مكانة نابوليون الثالث ان يعزل على هذه الصورة ويبقى في قيد الحياة . ورجل له نفسية كهذه لا بد ان يكون قد انتحر والله اعلم .

* * *

وفي نفس اليوم الذي عزل فيه عبد العزيز نودي بمراد الخامس سلطاناً .

واننا لا نعرف الشيء الكثير عن مراد وكل ما نعرفه عنه انه كان الابن الاكبر للسلطان عبد المجيد وانه ولد حوالي سنة ١٨٤٠ فيكون قد تولى العرش وهو في السادسة والثلاثين من عمره .

واظهر مراد في شبابه من التوقد الذهني ما لم يظهره شقيقه عبد الحميد ، فقد تلقى في السنوات الاولى من حياته في قصره والده شيئاً

من التعليم على يد الاساتذة الاتراك والفرنسيين . كما انه تلقى الدروس العسكرية وكان مغرماً بالدراسة شغوفاً بالتعليم شغفاً عظيماً ولكن الفرص التي قدمت له كانت ضئيلة زهيدة لا تشفي غليلاً فكان التعليم في تركيا في مهده واول مراحله . وكان من الممكن ان يستفيد من اختلاطه بالاساتذة ولكنهم حرموه منهم وعجلوا بادخاله الى (القفص) . ووجد المسكين ان التعليم بات مستحيلا في اوائل سنة ١٨٦١ فاضطر للاستسلام .

وعندما زار السلطان عبد العزيز فرنسا زيارته التاريخية اصطحب الاميرين مراد وعبد الحميد لانه كان يخشى ان يبقيهما في استنبول في غيابه خوفاً على العرش فقد كانا الوريثين الشرعيين . وكان العصر عصر مؤامرات ودسائس وعلى هذا كانت هذه الرحلة سبباً في تحريرهما من السجن قليلا فتنسما نسيم الحرية الى حين .

اما نابليون الثالث فقد اعجب بمراد اعجاباً عظيما ، اعجب بمظهره وبمقدرته على التكلم بالفرنسية ، كان شاباً مرحاً طلق المحيا .

يعلم الله انه لو كان السلطان مراد هذا قد تلقى من التعليم قدراً يؤهله للحكم لكان بالامكان ان يتعاون مع مدحت باشا ولكان في مقدورهما معاً ان يقوما بالاصلاح الذي عجز عنه عبد العـ[illegible] كان قد فكر فيه طويلا وكاد ينجح لولا مؤامرات الحريم

وكان السلطان مراد يود لو تطول الزيارة الى الابد فتـ[illegible] ماذا يجري له بعد نهايتها فما ان انتهت هذه الزيارة القصيرة حتى القي به في « القفص » من جديد .

اما القفص الذهبي الذي وضع فيه مراد فهو قصر لا تشتهي العيون اجمل منه قصر جراغان .

اجل ، حرموه من نعمة التعليم وان كانوا قد احاطوه باسباب الرفاهية والنعيم كان يجهل الامير مراد جهلاً تاما ما كان يجري حوله في العالم ولم يكن يسمح له بقراءة كتاب .

والادهى من هذا انهم احاطوه وهو شاب في ريعان الصبا بجيش من النساء « كالعادة » وبعدد لا يحصر من الجاريات والخصيان وكانوا لا يقلون عنه جهلاً وكان قد قضي عليهم جميعاً بقضاء اعمارهم في السجن الذهبي . .

وكيف تطيب الحياة مهما كانت مرفهة منعمة اذا حرم الانسان من نعمة الحرية التي يتمتع بها ابسط رجل او امرأة في الوجود ؟ ومن الذي قال انه يحق للانسان ان يسجن اخاه الانسان ويحرمه من حريته دون ارتكاب اي جريمة اللهم الا اشباعاً لرغبة السلاطين . .

كان السلاطين في خوف دائم من الورثة الشرعيين لهذا كانوا يبقونهم على الدوام في الاقفاص . اما الشاب مراد فكان يمعن في معاشرة النساء ويكثر من شرب الشمبانيا والكونياك . وكان يتبجح فيقول انه لا يطيق الحياة الا اذا سلك هذا السلوك .

وكان من جراء ادمانه للخمور انه كان يقضي اكثر اوقاته في ذهول ! ولم يكن ينتقل من موائد الخمور الا الى مخادع الحريم ! .

وفي الثلاثين من شهر ايار سنة ١٨٧٦ في الصباح الباكر ، بعد ليلة ممطرة مطراً غزيراً اوقظ مراد الخامس ، واخرجوه من قفصه ليتنسم نسيم الحرية .

احاط الجنود بالقصر ، وتقدم احدهم يقرع البابا بشدة واستولى الفزع على الخدم ؛ ولم يتعودوا قرع الابواب في مثل هذه الساعة ،

ففتحوا الابواب وهم في ذهول . وكم كانت دهشتهم عظيمة اذ وجدوا مدحت باشا مع حرس السلطان الخاص وفرقة كبيرة من الجنود .

اجل ، لم يكد يرى مراد هذا المشهد الغريب حتى اصيب بالبكم ، وانعقد لسانه فلم يستطع ان يتفوه بكلمة . ولكن مدحت اسرع فامره بارتداء ثيابه فوراً والسير الى بناء وزارة الحربية واخبره بان السلطان عبد العزيز قد عزل وانه سجين الان . فذهب وعاد يسير معهم اطوع من بنانهم .

القسم الثاني

الفصل السادس
بقلم حنا غصن

وكـان نفـوذ مـدحت بـاشـا يـزداد اثنـاءحكم السلطان مـراد حتى اصبح في النهاية يسيطر عـلى مجلس الوزراء سيـطرة تامـة . وقد اكسبتـه الاختبـارات مزايـا سياسيـة جديـدة جعلته اقـرب في مـواهبـه واعمـالـه العمـومية من رجـال العصر الجـديد ولم يحجم عن الاعـلان بأن تعـاليم الشريعة المقدسة المختصة بغير المسلمـين يتحتم الغاؤهـا حتى انه اشيـع بـان في النية معـاملة غير المسلمين معاملة المسلمـين الامـر الـذي عـده الاتراك خروجاً على العادة المعروفة في الحكم .

وكـان الايهام والغمـوض يحف بمشروع الاصـلاح الجديـد الـذي احتـاطت الحكومـة على ابقـائـه سـراً مكتـومـاً واوحت للجـرائـد بعـدم التعرض له فهل بالامكان المحافظة عـلى سر سيـما وهو يتعلق بتبـديلات سياسية كبرى ؟

وقد شاطر كبار علماء الدين الاسلامي مدحت باشا رأيه وحبذوا سياسته كما شجعه على المضي بها الوزراء . اما الشعب ، كما عرفته ، فمن المستحيل ان يسكت عما يراه اعتداء على عقائده الدينية حتى ان العناصر غير المسلمة لم تكن توافق على سياسة تقلب النظام العام وتقود الى شبه فوضى . فالحلم جميل اما تحقيقه فصعب وصعب جداً .

وكان مدحت باشا يجتمع دائماًبالبرنس عبد الحميد نظراً لازدياد الضعف في قوى السلطان مراد العقلية .

واشترك مدحت ووزير الحربية ، والقائد العام للجيوش التركية في عملية تنصيب السلطان الجديد . . الذي حيته الجيوش المصطفة ، وهتفت له الجماهير التي كانت قد احتشدت على الرغم من انهمار المطر انهماراً شديداً وسمي منذ تلك الليلة التاريخية بصاحب العظمة السلطان مراد الخامس وكان بالامس شاباً مرحاً سجيناً لم ير شيئاً من الحياة التي القي به في احضانها دون ان يعدوه اي اعداد لها .

واطلقت المدافع من السفن الحربية التي كانت راسية في الميناء وفي بحر مرمرا وقام الناس مذعورين على دوي هذه المدافع ورأينا الدار التي كنا فيها في اسكدار تهتز . وكان مراد الخامس يحب عمه عبد العزيز . وكان السلطان عبد العزيز لا يدخر وسعاً في ابعاد الملل عنه فكان ينفق عليه عن سعة وبذخ ، ولهذا وقع خبر انتحاره وقوع الصاعقة .

ولكن قلبه من الناحية الاخرى اخذ يرقص لمظاهر التبجيل والترحيب التي قوبل بها فاختلط الفرح بالالم فكان الفرح يتغلب على الالم لولا ورود رسالة وصلته من عمه عبد العزيز كان كتبها في اليوم

الثاني لعزله ، فقد قضى اربعة ايام معزولاً قبل ان يقدم على الانتحار وكانت الرسالة تشف عن عواطف رقيقة وتمنيات طيبة .

* * *

وحدث في الخامس عشر من شهر حزيران حادث على غاية من الخطورة اوقع مراد في الاضطراب .

دخل شقيق زوجة من زوجات عبد العزيز الشركسيات الى الغرفة التي كان بها اعضاء الوزارة وكانوا يتشاورون في شؤون الدولة ومعه ستة مسدسات محشوة فاطلقها جميعاً فقتل وزير الحربية وجرح وزيران آخران .

وكان القصد من هجومه هذا ان يثأر للسلطان عبد العزيز وكانت فعلته هذه لا تدل الا على ان المحافظين كانوا لا يرحبون بل ينقمون على الاصلاحات الجديدة ويعدونها من البدع . ولم يكن مراد بالرجل الذي يستطيع مجابهة هذه الازمة التي اعترضته فان حالته العقلية اخذت تزداد اضطراباً حتى قيل انهُ على وشك الجنون .

وقد اكد البرنس عبد الحميد لمدحت بانه لو كان هو السلطان لما تأخر دقيقة واحدة عن تصديق الدستور الجديد بما فيه مشروع الاصلاحات . وصدقه مدحت لدرجة انه طلب الى علماء الشرع ابداء الرأي في قضية خلع السلطان مراد وتولية البرنس عبد الحميد فاجابوه بان خلع سلطان بعد سنة من تنصيبه يناقض التعاليم الدينية . اما نحن فكنا نعيش في مدرسة (سكود داري) البعيدة عن ضوضاء السياسة وضجة القصور .

ففي الجهة الثانية او الى الضفة الاخرى من البسفور الاف

المؤامرات ومئات المشاريع السرية فهناك نساء السلاطين الثلاثة اي تسعماية من زوجات السلطان المتوفي وأضف الى عددهن زوجات السلطان مراد والبرنس عبد الحميد . ثم كبار الموظفين والاصحاب والمحاسيب وهؤلاء كلهم يعملون بالسياسة ويرتبون المؤامرات .

وهناك مدحت باشا بمبادئه التي يعدها بعض رجال السياسة الحديثين تطرفاً، وهنا العلماء وبينهم شيخ الاسلام نفسه يناصرون فكرة لو تحققت لقضت على نفوذ الاسلام السياسي . ووراء الجميع البرنس عبد الحميد يراقب ويداهن مناصري مدحت باشا علناً ويعمل سراً على احباط مساعيه لانه كان يكره الاصلاح وكل فكرة جديدة من شأنها تعزيز فكرة الحرية والمساواة .

ولا نستطيع ان ننسى وجود السفير الروسي اغناتياف القابع في زوايا سفارته يحيك المؤامرات لاحباط كل ما يفكر به مدحت باشا من اصلاح فقد كان يخاف دستور مدحت الجديد كما يخشى كل فكرة ترمي الى توثيق العلاقات بين العاصمة والملحقات وبالامس افسد خطط مدحت بشأن الولايات عندما كان حاكماً . لان اغناتياف كان يحلم باستيلاء دولته على هذه الولايات التي ستصبح العوبة في ايادي اكثر السياسيين الروسيين تستعمل لخدمة الهدف التي طالما سعت روسيا لتحقيقه ولم يكن اغناتياف يظن بان هذه الولايات ستحول بعد ما تستقل دون وصول روسيا الى غاياتها .

وكان السر هنري اليوث سفير انكلترا في تركيا يسعى الى تحقيق مبادىء دزرائيلي الكبير لكن نفوذ غلدستون خصم دزرائيلي وزعيم احرار الانكليز كان ينمو ويزداد فاستبدل (اليوث) بسواه وابعده عن العاصمة التركية .

ومن الغريب جداً ان يقدم السلطان عبد العزيز على الانتحار في مثل هذا الجو المشبع بالدسائس ويتطرق الوهن الى قوى مراد العقلية .

وبعد ان اتم مدحت باشا دراسة مشروعه الكبير طرحه على بساط البحث في مجلس الامبراطورية الذي اجتمع خصيصاً للنظر فيه في منزل شيخ الاسلام وحضره الوزراء وكبار رجالات الدولة .

وبعد البحث قبل المجلس مشروع الاصلاح مبدئياً غير ان البعض استنكروا معاملة غير المسلمين كمعاملة المسلمين بحجة عدم موافقة ذلك للشريعة السمحاء ، فقوبلوا (تتبدل الاحكام بتبدل الازمان) وارغموا على السكوت بموافقة الاكثرية عليه . ثم عرض الاصلاح على البرنس عبد الحميد الذي اصبح ولي العهد باعتلاء السلطان مراد الاريكة ، فقبل المشروع هو بدوره ووعد بمساعدة كل فكرة اصلاحية جديدة يأتي بها مدحت باشا بعد اعتلائه العرش .

ومما زاد في متاعب السلطان مراد المشكلة الجديدة التي ذر قرنها في بعض الولايات البعيدة . فقد كانت المواسم متأخرة في صيف عام ١٨٧٤ في منطقتي البوسنا والهرسك حيث يعمل الصقالبة كفلاحين عند ملاكي المسلمين . وفي عام ١٨٧٥ بدأ التذمر العلني من فداحة الضرائب وضغط الملاكين وتطور التذمر الى ثورة مسلحة ضد حكومة السلطان . وطلب الثائرون المساواة الدينية مع تعيين لجنة مختلطة للنظر في تخفيف الضرائب . والح رعايا السلطان في الولايتين بضرورة توزيع ثلث ممتلكات ملاكي المسلمين على الشعب ، ثم انضم البلغاريون الى الحركة الجديدة . ولم تكن حالة الوزراة العثمانية بمكنتها في حل امثال هذه القضايا في الولايات البعيدة رغم سهر مدحت باشا وعنايته . والحقيقة ان مجمل مشروعه الجديد يرمي الى القضاء على امثال هذه الازمة .

وفي اوائل نيسان قبل خلع السلطان عبد العزيز بشهرين بدأت الفتنة في بلغاريا ولو كان على رأس الحكم جماعة يستطيعون تنفيذ مبادىء مدحت باشا العادلة لاستطاعوا مجابهة العاصفة وتحويل تيارها . . . لكنهم رأوا ارسال الجنود الى بلغاريا لقمع الثورة بالقوة فسببت القوة اندلاع لسان اللهيب .

وفي صيف ١٨٧٦ اخذت غيوم السياسة تنذر العاصمة بخطر الحرب المداهم وكان على مدحت باشا ورفاقه ادارة جميع شؤون السلطان الضعيف والذي لم تعد قواه العقلية تمكنه من الحكم . وكان عليهم ان يعنوا بحوادث بلغاريا وصربيا وارسال الاجوبة على البرقيات المتتابعة . وقد كان باستطاعتهم تلافي الموقف لو تركت لهم مقاليد الاحكام غير ان من دواعي الاسف الشديد ان تكون جميع اعمالهم مرهونة التنفيذ على تصديق الحاكم الاول .

وفي هذا الجو المملوء فوضى كانت الحياة في قسطنطينية تسير في طريقها العادي فالمـ ـوي في سماء العاصمة كل يوم جمعة ، وصوت المؤذن يلعلع من مآذن الجوامع خمس مرات في النهار داعياً المؤمنين الى الصلاة .

والنساء بالبستهن الزاهية وعطورهن الشيقة يخرجن في العربات الملوكية من قصور السلاطين الى المنتزهات مقهقهات فرحات ، او في القوارب فوق مياه البسفور يستقبلن هباب نسيم البحر العليل فتزيدهن صحة وجمالا .

* * *

اما انا (المؤلفة) فقد دخلت عالماً جديداً جلب لي المسرة

والغبطة . بدأت اتعلم اليونانية ، وهكذا اصبحت استطيع التعرف الى التركية واليونانية ولكل واحدة منها علاقتها الوطيدة بالماضي ، هذه بالعالم العلمي ، والثانية تجهزني بمفاتيح المدنية الغربية .

ولتحسين معلوماتي اليونانية طفت في القرى اليونانية الصغيرة ، واقمت مدة طويلة في (برافا) حيث اجتمعت بخلفاء سقراط ، وباكليس ، وايوكليد بالاسم وقد ظهر لي ان لسكان هذه القرية ولعاً غريباً باسماء عظماء اليونانيين القدماء ، حتى انك بالكاد تعثر على عائلة لا تطلق اسماء الابطال على ابنائها ! . .

واجتمعت الى يوناني يحسن الانكليزية فحدثني بلغة معوجة ظاناً نفسه انه اميركي من سكان الجنوب فاستنتجت بانه تعلم هذه اللهجة من بعض السياح الاميركيين الذين يزورون الاراضي المقدسة كل عام .

لقد سررت من اختباراتي الشخصية في القرية الصغيرة ، فالسكان كانوا يتمتعون بحرية دينية مطلقة ومدرستهم الصغيرة كانت على غاية من الازدهار والنمو لغتهم اليونانية لا تشوبها رطانة اعجمية البتة . كل هذا من مظاهر الحياة العامة والحرية التامة التي تمتع بها العثمانيون في ظل حكم السلطان عبد العزيز والتي بدأت الاعاصير السياسية تهدد بزواله في جميع انحاء الامبراطورية . .

* * *

وتجاه الاخطار الداخلية والخارجية المحدقة بالدولة كان مدحت باشا يجتمع كثيراً الى البرنس عبد الحميد ويطلعه على الخطط السياسية والمناهج الاصلاحية ، والامير لم يتوان في اظهار اعجابه وتقديره

لاصلاحات مدحت باشا . واستشير علماء الشرع مرة ثانية بصدد خلع مراد الخامس فافتوا بعدم قانونية ذلك من الوجهة الشرعية الصحيحة ، ويقول البعض بان البرنس عبد الحميد امضى تعهداً بالتنازل عن العرش اذا عادت للسلطان مراد قواه العقلية . ولا نعلم مصير هذا التعهد لان مراد استعاد سلامة عقله ولم يتنازل عبد الحميد عن العرش !. .

واخيراً اصدر شيخ الاسلام فتوى بخلع السلطان مراد الخامس وقد اعلنت الحادثة نهار ٣١ آب سنة ١٨٧٦ باطلاق مئة مدفعاً ومدفع .

وانتقل السلطان مراد وعائلته بعد حكم ثلاثة اشهر من قصر ضولمه باغجه الى محبسه في تشارغان حيث منع من الاختلاط بالناس وحرم من الخروج من القصر ولم ير الجرائد والكتب حتى ان ادخال ادوات القراءة والكتابة الى داخل القصر كان محظوراً واضطروه الى استعمال الفحم الاسو ويلاط القصر الجميل ليعلم اولاده القراءة والكتابة ! . .

واستعاد مراد قواه العقلية ، لكنه بقي سجيناً مراقباً حتى وفاته عام ١٩٠٤ .

وفي هذه الاثناء ترعرع اولاده واحفاده وكبروا امام عينيه بدون تهذيب وتعليم اللهم ما استطاع ان يلقنهم اياه بنفسه ولم تطأ اقدام احد منهم خارج القصر حتى طعامهم كان قليلاً في بعض الاحيان .

والسلطان مراد الذي حكم العالم العثماني مرة كانت جيوبه فارغة من دريهمات تمكنه من شراءِ الطعام من الخارج .

واذا سمح لبعض الاجانب دخول القصر والتفرج على انحائه فقد كانت السلطة تحظر على عائلة السلطان المخلوع الخروج من الغرف فلا يراهم احد .

* * *

وعندما انتقل السلطان الى العالم الثاني بعد مرور ٢٨ عاماً على خلعه ابقيت عائلته في نفس المكان حتى الثورة التركية عام ١٩٠٨ فسمح للاحفاد والنساء بالخروج الى الشوارع فخرجوا مبتهجين فرحين .

ويعد بروز امثال مدحت باشا في عالم السياسة التركية في تلك الظروف فريد في بابه . فمع انه كان في اول امره وزيراً من دون وزارة فتأثيره ونفوذه سيطرا على الجميع ، ولسوء حظه لم يستطع فهم اخلاق السلطان عبد الحميد المشبعة بالدسائس والمكائد . . وهكذا أخفق انفاذ الحلم الجميل الذي كان تحقيقه يقلب صفحة التاريخ الاسلامي .

ومع ان السيطرة العليا كانت بيد شيخ الاسلام وعلماء الشرع فقد كانوا يجهلون ايضاً اخلاق السلطان عبد الحميد ! .

* * *

وفي خريف سنة ١٨٧٦ فتحت مدرسة (اسكي داري) ابوابها معتمدة تنفيذ برنامجها الجديد وهو تدريس اللغة الانكليزية في كل الصفوف . وكان المشروع جديداً يبشر بمستقبل حسن ، والى جانبي المدرسة ما يشجعنا على المضي بخطتنا ، فالى الجانب الواحد القصر

الذي فرش خصيصاً لاستقبال الامبراطورة اوجيني في طريقها الى مصر لافتتاح قنال السويس ، والى الجانب الثاني في الخليج الواقع على مدخل بحر مرمرا مستشفى (نيتنجايل) التي قامت بتمريض جرحى حرب القرم فخففت ويلات الكثيرين وانقذت الوف الجرحى وانقصت معدل الوفاة من ٤٤ الى ٢٢ بالالف .

والى فلورنس نيتنجايل ندين نحن النساء بحياتنا لانها جعلت العالم يقدر مواهب المرأة . وهي التي اوحت بعملها الى جون ستيورت مل فقام يطالب بتحرير المرأة واعطائها حق الاقتراع وانشاء المدارس النسائية وهي التي اثرت في ايجاد جمعية الصليب الاحمر التي تكونت عام ١٧٦٤ .

وكان حكم السلطان مراد بعيد الاثر في حياة الامبراطورية ففي وسط ازمة البلقان والاضطرابات في الولايات التركية والشقاق في الوزارة انتقل مراد من السجن الى العرش حيث بقي ثلاثة اشهر عبئاً ثقيلاً وغلاً ليد مدحت باشا ، ثم رجع الى سجنه وافلت عبد الحميد الثاني من السجن الى العرش .

وكما ذكرت سابقاً كان عبد الحميد احد اولاد عبد المجيد الذين تولوا العرش ، وعندما اقول الاشقاء الاربعة في تركيا اعني غير ما نعرفه نحن في اميركا لان الشقيق في تركيا يكون لام او لاب وبعد ما عرفت اخلاق عبد الحميد بدأت الشائعات تدور حول مولده فذهب بعضهم على انه ابن راقصة اجنبية جاءت القصر فاحتفظ بها السلطان اما المصادر الرسمية فلا تتعرف لميلاده بما يريب .

* * *

ولم تكد ابواب السجن تغلق وجدرانه تضم السلطان مراد الخامس وعائلته حتى قلد عبد الحميد الثاني سيف عثمان في حفلة شائقة في مسجد ايوب المقدس المحظور على المسيحيين دخوله . وهكذا ابتدأ عهد عبد الحميد .

وكانت حفلة التنصيب شرقية بابهتها وعظمتها واسعدني الحظ بمشاهدتها عن كثب اذ استطاع احد اصدقائي الحصول على تذاكر فشاهدت جميع كبار رجال الجاليات الاجنبية لانه حظر حتى على السفراء الدخول الى الجامع حيث ختمت الحفلة فالدخول الى الجامع يثير حمية المصلين .

وكان السر هنري اليوت لا يزال في العاصمة . وكذلك السفير الروسي أغناتياف خصم السفير الانكليزي واكبر شخصية سياسية روسية عرفتها العاصمة العثمانية . اما الولايات المتحدة فلم يكن لها سفير بعد بل وكيل مصالح يقف في الحفلات الرسمية في الصفوف التي تلي الدول الكبرى وراء ممثلي انكلترا وروسيا والمانيا وفرنسا الى جنب ممثلي الدول الصغرى . وبقيت الولايات المتحدة ترسل وزيراً مفوضاً حتى عام ١٩٠٨ فرفعت الدولة درجة الوزير الى سفير وهكذا اصبح السرجون ليشمان سفير الولايات المتحدة الاول في العاصمة التركية .

واضطر ممثل اميركا هوارس مينارد ان يجلس في حفلة التتويج في الكراسي البعيدة عن مقاعد السفراء ومع انه ديمقراطي لا يأبه للعظمة الخارجية شخصياً فقد تأثر كثيراً بالنسبة لمراكز الدولة التي يمثلها .

وامتلأت المقاعد قبل الظهر ولم يكن علينا ان ننتظر طويلاً لان جميع الاستعدادات انهيت في الصباح الباكر . وعلى الاغلب صدرت

فتوى شيخ الاسلام في الليل السابق . وفي الصباح انتقل عبد الحميد الثاني الى القصر الملكي يحرسه وزير الحربية وكوكبة من الفرسان . وفي القصر كان كبار رجال الدولة بالانتظار وقد اعلنوا اعتلاء السلطان الجديد وسط عاصفة من الهتاف : (ليحيَّ السلطان) (بادشاهم تشوك يشا) . ثم سار المجتمعون الى (سرغليو) المكان الذي اعدت فيه النقالات البحرية فامتطوها الى قصر (ضوله باغجه) نفس القصر الذي شاء القدر ان يترك ارضه السلطان مراد الخامس في ساعات معدودة مصحوباً بعائلته الى السجن .

ومن اعالي مقاعدنا شاهدت الحرس السلطاني يتقدم رويداً رويداً ومرت فرق الجيش على اختلاف الجنسيات والالوان : الفرق التراكية ، الكردية ، الارناؤوطية ، العربية ، المورية ، والبوسنية ، وكلها بالثياب الفاخرة تتقدمها فرقة من فرق الموسيقى .

ثم مرت العربات وفي الاولى جلس السلطان الجديد في عربة مذهبة الحواشي تجرها الخيول الحمراء المطهمة . وفي عربات خاصة نساء الحرم السلطاني تعلو وجوههن البراقع الكثيفة .

وكانت مدافع الدوارع في البسفور تملأ الجو رهبة وتزيد الموكب ابهة وعظمة ! . . ثم دوى صوت المؤذن يدعو المؤمنين للصلاة . فساد الخشوع الجميع وهذه اول مرة اشهد فيها العظمة الملوكية وقد شهدتها فيما بعد ستة عشر مرة . اما اليوم فقد ساوى العصر الحديث بين الصعاليك والامراء وترك اكثر الملوك العروش عقب الحرب الكبرى حتى ان بينهم من يعمل العمل البسيط ولا فرق بينه وبين عمال الطبقة الوسطى .

ولا يقلد السلطان الجديد سيف الملك غير رئيس دراويش

المولوية الذي جاء خصيصاً من مدينة قونيه لهذه الغاية . وكانت الجموع هادئة اثناء القيام بعملية تقليد السيف داخل جامع ابي ايوب الانصاري المقدس قريباً من شواطىء القرن الذهبي ومن اسوار بيزنطية القديمة .

* * *

ويقف المرء حائراً تجاه سلطان قضى معظم حياته في السجن يحيك المؤامرات لتسنم الاريكة ويجب ان لا ننسى ان عبد الحميد كان جاهلاً تنقصه الخبرة المتعلقة بالشؤون العامة وهذا النقص يشمل التهذيب والتعليم والاختبار والهبة الطبيعية وكان شديد الاهتمام بالمظاهر الخارجية والتقاليد الدينية انما من المحقق ان اتساع مملكته والمحافظة عليها لم يشغلا فكره مطلقاً ، فلما تسنم العرش ورث اسطولاً يجعل دولته الثالثة في قوتها البحرية فحجر على قطع الاسطول في داخل ميناء القرن الذهبي وبدأ يصرف بالتدريج المئتي اخصائي من مهندسي البحرية الانكليزية الذين استعانت بهم الدولة لتقوية بحريتها .

واهمل شأن المعهد الحربي البحري فدبت الى اسسه عوامل الفساد . كل هذا يبرهن بجلاء بأن السلطان لم يكن ليهتم حتى بالمحافظة على مملكته البعيدة .

ففي نفس اليوم الذي اصبح فيه سلطاناً كانت الازمات تهدد كيان الدولة ففكرة الاستقلال بدأت تنتشر بسرعة واصبح للوطنية معنى جديد اخذت فكرته تنمو وتترعرع في الولايات التركية . ولم تكن فكرة الوطنية قد توضحت بالطريقة التي شرحتها مبادىء الرئيس ولسن

انما كانت عبارة عن مزيج من الوطنية والنعرة الدينية .

* * *

وفي صباح اول ايلول اي ثاني يوم التتويج لم يكن السلطان يفكر بالمعنويات كثيراً ولو فرضناه كان يهتم بمصالح بلاده . وطلب الوزراء خلوة خاصة بالسلطان لاطلاعه على شؤون الدولة ومعضلاتها وبينهم مدحت باشا وكله ثقة بالسلطان الجديد الذي سيساعده في تحقيق الدستور ومنح الحرية والمساواة الى كل افراد الشعب العثماني .

وكانت المشاكل المواجهة للسلطنة مما يثبط عزيمة الامير الصغير . ففي اوائل صيف ١٨٧٦ عندما لم يكن بالدولة من يتولى الحكم بحذر وشدة ، اخمدت اضطرابات بلغاريا بطريقة اثارت الاشمئزاز واستفزت الشعور الأوروبي فاحتجت روسيا وانكلترا بغضب وتحمست النمسا كثيراً .

وعقب ذلك اعلنت كل من صربيا والجبل الاسود الحرب على الباب العالي الذي قهرت جنوده القوى الصربية بسهولة وهذه بدورها طلبت تدخل روسيا .

وبالكاد يذكر التاريخ سلطانا تسلم زمام الاحكام بمثل ظروف كهذه وبالرغم من عدم تأهب عبد الحميد واستعداده لمجابهة الازمات الدولية فقد وجد نفسه في جو مشبع بالثورة والاضطراب . فقد رأى نيران الثورة تندلع في البوسنا والهرسك والحرب في منطقتي الجبل الاسود وصربيا ، واحس بتريث الدول الاوربية وتأهب كل واحدة منها متحفزة لاغتنام اول فرصة تسنح للقضاء على ولاية او قطعة من املاك الدولة العليا .

وكـان اللورد بيكنر فيلد (دزرائيـلي) لا يـزال رئيسـاً للوزارة الانكليـزية ، فـاستغـل زعيم المعـارضـة غـلادستـون حـوادث بلغـاريـا للحملة عـلى الوزارة ، ولكـل من الاثنين سيـاسـة خـاصـة في تـركيـا . واخيراً اضطرت الحكـومة الانكليـزية تجاه قرار مجلس النـواب والشيوخ الى انتـداب مسـتر (والـتر بـاريـغ) للبحث عن حقيقـة مـا ذكـرتـه الصحف . واثـر الـرأي العـام الاميركي عـلى الحكـومـة التي اوعـزت لممثلهـا في العـاصمـة التركيـة بانتـداب من يقوم بـالتحقيق عن حـوادث بلغاريا بالذات والسفير عهد بالمهمة الى القنصـل الاميركي العـام المستر شيلر الذي مر اثناء ذهابه بالمدرسة وبات هو ورفيقه ليلة فيها .

ويعد الذهاب الى المناطق الثائرة البعيـدة ، غير المربوطـة بسكك حـديـديـة والمستـولي عليهـا الجيش شجـاعـة نـادرة من المسـتر شيلر ، خصوصاً وضبـاط الجيش التركي ينـظرون بريبـة الى كل اجنبي . ومـع ذلك فقد ذهب ممتطياً ظهر جواده ولكنـه عاد واعتـرف بعدهـا بانـه كان يرتجف من قمة رأسه الى اخمص قدميه .

وكـانت الجرائـد الانكليزيـة وسواهـا من الصحف الأوروبية تنشـر الاخبار المقلقة عن حوادث بلغاريا . وعقد مؤتمر القسطنـطينية بنـاء على اقتراح روسيا وانكلترا وكان منـدوبا تـركيا يـوافقان عـلى مجمل المشـاريع الاصلاحية وهذا ما جعل السلطان ينقم عليهما .

وكـان المستر شيلر يمثـل الـولايـات المتحـدة وقـد مثـل الحكـومـة الانكليـزية كـل من اللورد سلزبوريـا ، والسر هنـري ايليوت وكـذلـك ارسلت دول المـانيـا ، والنمسـا وايـطاليـا ممثلين عنهـا غـير ان الجنـرال اغنـاتيف كان اقـوى المنـدوبـين فـاستـطاع ان يهيمن عـلى المؤتمـر ويمـلي ارادته .

وقد اظهر المؤتمر رغبة بتسوية للمشاكل المستعصية مع المحافظة على سلامة الامبراطورية بالظاهر ومنح ولايتي البوسنه والهرسك شيئاً من الحكم الذاتي .

ولم يكن السلطان عبد الحميد بالواقف على مجريات الامور والحوادث التي سببت عقد المؤتمر . وآخر احتكاكه بالسياسة قبل دخوله السجن كان في قصر والده عبد المجيد كانت تطير رؤوس من يعترض على اوامر السلطان . ذلك عهد مضى اثناء وجود عبد الحميد بالسجن وذر قرن عهد آخر . الصحف الروسية التي اخذت تنشر المقالات الطويلة تعليقاً على خلاص الامة التركية من العهد الاستبدادي .

وبالظاهر لم يفهم عبد الحميد من الدستور الجديد اكثر من واسطة موقتة يستطيع بها محاربة الفوضى والخروج من الازمات الخارجية والداخلية وعندها ينهي الامر . وفي الوقت نفسه بلغ مدحت باشا الدرجة القصوى واليه سلمت مقاليد الاحكام فاصبح رئيس الوزارة وبامكانه انفاذ مشروعه الذي سهر عليه الليالي الطوال واعتقد ان الايام تبسم له ولبلاده التي بدأت تستقبل اشعة شمس الحرية ! .

وفي ٢٤ تشرين الثاني في اليوم الذي كان يعد فيه برنامج عمله دوت في فضاء العاصمة اصوات المدافع معلنة للملأ تصديق السلطان للدستور الجديد فلم يتمالك السر هنري اليوث نفسه من التصريح قائلا :

ـ لقد انتهى عملنا ايها السادة ! . .

فالدستور يحوي من الاصلاح ما لم يفكر المؤتمرون بالبحث فيه . وقد صرح مدحت باشا بانه يرتكز على الحرية والعدالة

والمساواة . اذن انتصرت المدنية ونص مشروع الدستور على منح السلطة التشريعية الى مجلسي الشيوخ والنواب الاول تعين افراده الحكومة والثاني ينتخب من قبل الشعب في جميع انحاء المملكة واطلقت حرية الصحافة وجعل التعليم اجبارياً . وهكذا قضي على المؤتمر وبزغت شمس العهد الجديد الذي بعث في النفوس الآمال الجسام .

وكان السلطان يراقب الموقف بعين حذرة لانه لا يريد تنفيذ الدستور . وادرك ان مندوبي الدول لم يصدقوه وهكذا لم ينجح فيما رمى اليه في خدعته . ولذلك استدعى اليه وزيره الاول وصرفه من الخدمة .

ومنذ ذلك اليوم بدأ عهد استشهاد مدحت باشا الذي اصبح ضحية اضطهاد السلطان . وفي الشهر الذي ابحر فيه مندوبو الدول من القسطنطينية نفي فيه مدحت باشا وهكذا قضي على هذا الرجل الذي اراد ان يخدم بلاده ، فصرف ما تبقى من حياته معذباً في منفاه واخيراً استشهد في سبيل امته ومبادئه .

ولما شبت نيران الحرب السبعينية كانت روسيا اشد الدول الأوروبية اهتماما بالدسائس والمكائد ، اذ ادرك القيصر ان الحرب الثانية تشتعل بالبلقان فاراد ان يمهد لها ويستعد . .

وهل احسن من تشجيع فكرة الوطنية ! . . فتستطيع روسيا ان تعانق سياسة الجامعة الصقلبية ! . (بان سلافيزم) فتصبح مرجع صقالبة البلقان ومحط آمالهم اما بسمارك فقد تظاهر بمعرفة سياسة الوطنية فقد كان يحرك روسيا ويشجعها وكان بالامكان تغير مجرى الحوادث لولا وجود دزرائيلي اليهودي الاصل على رأس الحكم في

انكلترا ، ودزرائيلي لم يأبه لفكرة الوطنية بل شجع سياسة العنصر وكان يعتقد ان بامكان اي عنصر ان يسود ضمن كيان دولة كبيرة وهكذا عمل على ابقاء البلقان ضمن نطاق الامبراطورية العثمانية .

ومع انه اخفق كسياسي كبير بردع فكرة الوطنية من النمو في الدول البلقانية وعمل على كبح جماحها لانه كان يخشى استقلال بلغاريا التي ستعمل على تحقيق الهدف ! . .

ولما كان خلق السلطان عبد الحميد لا يتغير فقد ثابر على سياسته طوال سنين حكمه . واخلاقه مزيج من الخداع والدسائس والشدة ولم يكن دستور مدحت في نظره اكثر من خدعة يمالق بواسطتها الدول الغربية مع ان علماء الشرع وزعماء الدولة بما فيهم مدحت باشا كانوا يعلقون على الدستور كبير امل ويرون فيه المنقذ الوحيد للازمة التي تعانيها البلاد اما رجال المؤتمر فلم يأبهوا له البتة . وتمت المظاهر في عهد السلطان عبد الحميد على ان القيادة ظلت بيد مدحت باشا ففي تشرين الاول عام ١٨٧٦ قبل جلالته الدستور الذي يمنح الولايات التركية حق الاشتراك في الحكم غير ان ثقة الدول الاوربية بالمشروع الجديد كانت ضيقة جداً .

ومع ذلك فقد اوقف القيصر الروسي وسفيره اغناتياف عند حدهما وغل ايدي غلاة الروسيين عن العمل نظراً للتأثير الكبير الذي احدثه في الصحف ولو عاش هذا المصلح مئة عام قبل عهده ولم تتغلغل روح الوطنية في نفوس الولايات التركية لنجحت جميع خططه اما في عهده فقد ظهرت مستحيلة التحقيق نظراً لتضارب المنافع الوطنية .

واليوم ضمت بلغاريا اليها ولاية من الاثنتين اللتين عمل في

سبيلهما ، واستقلت الثانية تحت اسم (دولة العراق العربية) .

* * *

ودهش السلطان من التأثير الكبير الذي احدثه اعلان الدستور في البلاد وكان الاصلاحيون لا يزالون يعتقدون باخلاصه ويثقون بحسن نيته . فلم يجسر على تعطيل الدستور فجأة وآمل ان يسيطر على جلسات البرلمان بالدسائس والمؤامرات ولما كان الدستور قد اعلن فلم يبق غير الشروع بالانتخابات وجمع النواب في العاصمة . وهذا ما اقدم عليه السلطان ، وتوافدت وفود النواب من الولايات بعضهم بالعربات والبعض على البواخر ومنهم من امتطى متون جياد القوافل وظهور الجمال . ثم افتتح البرلمان في ١٩ اذار سنة ١٨٧٧ .

ويلذ التفرج على نواب المقاطعات البعيدة نواب بغداد وسوريا وشواطىء البحر الاسود وشمالي افريقية والمقاطعات البلقانية ، وسيماء البشر تعلو وجوههم . واجمل من كل ذلك الملابس المزوقة والالوان الزاهية .

واظهر شيء في هذا البرلمان كان علماء الشرع بعمائمهم البيضاء وجببهم المختلفة الالوان لتفاوت الدرجات .

ومنذ أن افتتح البرلمان حمل النواب على اختلاف مناطقهم حملات شعواء على سوء الادارة والسرقات والفوضى في انحاء البلاد وكانت شكوى نائب بغداد لا تتلف عن شكوى نائب اليوسنيا مع ما بين الدولتين من المسافات وذلك ما دل على احتياج البلاد للاصلاح ومع أن جلسات البرلمان لم تدر كما يجب رغم عدم اهتمام الحكومة بالابحاث فقد كان معظم اعضائه من فحول رجال الدولة المخلصين والذين

طلبوا الاصلاح بالحاح .

وكانت شقيقة رئيس البرلمان احمد وفيق باشا صديقتي تسعى جهدها لتهذيب الفتاة التركية وتحريرها من شرائع وضعت لاستعبادها . وكان احمد باشا رجلاً مهذباً متعلماً وقد شغل منصب السفارة في حكومة نابليون الثالث . وهو يحسن الفرنسية ويجيد التكلم بها غير ان خطأه الوحيد هو اسلوبه الاستبدادي بادارة الجلسات . فكان بعض الاحيان يسكت بعض النواب اثناء القائهم خطباً طويلة بحجة انها ثرثرة . وبينما كان احد العلماء يلقي خطاباً ذات يوم صرخ به الرئيس قائلاً : ـ (اصمت يا حمار) .

ومع ذلك لم يثبط نهج احمد وفيق باشا همم النواب الذين عملوا بشجاعة واخلاص في سبيل بلادهم وبعد درس طويل لقضايا تتعلق بالولايات النائية اتهموا ثلاثة من الوزراء واتخذوا قراراً بضرورة جلبهم الى المجلس ومحاكمتهم .

وقد ازعج هذا القرار الحكومة واخاف رجال الامر والنهي . فاطلاق يد النواب وتسليطهم على الوزارة جريمة في نظر السلطان ويعد قرارهم نهاية عهد البرلمان لان في الليل نفسه زار النواب فرداً فرداً بعض ضباط الحرس السلطاني واخرجوهم من العاصمة دون ان يتركوا لهم فرصة الاجتماع ، وفي اليوم الثاني افاقت العاصمة ولا نواب في المجلس وقد ساعد اضطراب الموقف وخوف نشوب الحرب على انهاء اجل البرلمان .

وهكذا اضمحل المجلس الذي اجتمع منذ شهرين واعقبه ارادة سلطانية بوقف البقية الباقية من نصوص مواد دستور مدحت الاصلاحي الذي سبب اجتماع امثال اولئك الوقحاء المتهجمين على

وزراء جلالته !. وحظر اعطاء اي رخصة تجيز عقد اجتماع سياسي يدعو للحكم النيابي ولذلك لم يجتمع البرلمان ثانية الا في سنة ١٩٠٨ بعد مرور ثلاثين سنة على الحادث .

* * *

ولم يغفر السلطان عبد الحميد لمدحت باشا عمله ونقم عليه وخشي من حب الشعب له ولذلك اتهمه بعد مرور اربع سنوات على وجوده في المنفى بقتل السلطان عبد العزيز . وعقد مجلس من علماء الشرع بصفة محكمة عليا تحاكمه على اغتياله السلطان السابق وقد اشهدوا عليه بعض المرتكبين فحكمت باعدام مدحت باشا واحجم احد علماء الشرع من الحكام عن تصديق الحكم ، فاكتسب نقمة السلطان وغضبه طوال حياته فاحتج مندوبو الدول الأوروبية على الحكم وبعد اخذ ورد استطاعوا تبديل حكم الاعدام الى السجن المؤبد وقد احدث الحكم بالاعدام على مدحت باشا ضجة كبرى في الانديه الأوروبيةوتناوله مجلسا الشيوخ والنواب في انكلترا بالنقد الشديد .

ولم تغمض للسلطان عبد الحميد عين حتى قضى على مدحت باشا الذي كان قد نفي الى بلاد العرب في مدينة ـ الطائف ـ من اعمال الحجاز ونقل رأسه محنطاً الى عبد الحميد .

الفصل السابع

وكان الجو الاوروبي يدعو الى الخوف والريبة وسماؤه تنذر بالعاصفة ، وقد تطورت الحالة بشكل قاد الدول الى الحرب ، لان اخفاق مؤتمر القسطنطينية وسوء التفاهم والخلاف بين الدول الأوروبية اطلق يد روسيا واوسع لها مجال العمل الذي تسعى اليه .

وليس باستطاعتنا اليوم ان نفهم حقيقة الموقف السياسي وقتذاك فقد كان بسمارك مسيطراً على السياسة الأوروبية يسير دفتها بيديه القويتين . ولم يكن دزرائيلي اقل منه حنكة ودهاء ، وكلاهما يسعيان الى احباط آمال روسيا في البلقان كل بموجب رأيه وخطته وبالنسبة لروح العصر . فقد تذرعت روسيا بما يلي :

الدين ، والعنصر الارثوذكسي في الشرق ، والصقالبة في البلقان . . اما قومية بلغاريا ووطنيتها وآمال شعبها بالاستقلال فامور لم تخطر لاحد ببال .

واخيراً اعلنت روسيا الحرب على الباب العالي في ٢٤ نيسان ١٨٧٧ وحدثت معارك شديدة في البلقان وفي مقاطعات اسيا الصغرى وخلدت اسماء شبكا ، وحصن بلفنا بالتاريخ . وقد ساعدت رومانيا

روسيا على تركيا فنالت بذلك استقلالها . وبالنهاية بلغ الجيش الروسي منطقة سان استفانو التي تبعد ١٢ ميلا عن القسطنطينية فاضطرت الحكومة التركية الى توقيع الهدنة في ٣١ ك ٢ ١٨٧٨ وبدأت مدينتنا تغص اثناء الحرب الروسية التركية باللاجئين ، ولاول مرة في التاريخ الحديث هجر الاتراك منازلهم في المقاطعات الأوروبية خوفاً ووجلا . وجاؤ ونا مشاة وعلى ظهور الحمير والبغال محملين امتعتهم على الثيران ومعهم ما يملكون من ماشية واثاث . وهناك قريباً من الجسر الى الطرف الثاني من القرن الذهبي كان المار يصادف جيوش اللاجئين فتدفعه الشفقة الى اطعام الصغار والتصدق على الامهات والفتيات . وآوى المسلمون في منازلهم الكثيرين من متشردي اخوانهم المسلمين وقد وقفت الاديبة المعروفة (خالدة اديب) على الكثير من هذه الامور لان عائلتها اشركت معها في المنزل ثمانية مساكين .

وتقدم الجيش بسرعة بدون استعمال الوسائط النقلية السريعة كالقطارات والسفن الحربية وكانت انوار منارة (سان استفانو) حيث رابطت مئات الالوف من الجنود الروسيين ترسل الانذار تلو الانذار ، وقد ابرق (الكرندويك) قائد الجيوش الى القيصر هذه البرقية :

« لقد برزت قباب (سانت صوفيا) ورآها الجنود ، الجميع يريدون الصلاة فيها هل نستولي على المدينة ؟ » .

والغريب انهم لم يحتلوا القسطنطينية ! .

واهتزت أوروبامن اقصاها الى اقصاها وتكهرب جوها منذراً بالعاصفة . . واخذت النمسا تحشد جيوشها على حدود البلقان . اما بسمارك فكان ساكناً لا يبدي ولا يعيد وقد ابرق سراً الى النمسا يطلب اليها التريث وترك انكلترا تعاني الموقف وحدها . ولم تقف

انكلترا مكتوفة الايدي امام الحالة الراهنة بل ارسلت اسطولها الى بحر مرمرا فرابط في (برنكيبو) احد جزائر الامراء . واخذت تحشد الفرق الهندية في جزيرة مالطا . وامتلأت العاصمة بالضباط الانكليز والروس الذين كان يسمح لهم بدخول القسطنطينية ، وفي حفلات الرقص التي كانت تقام في سفارتي انكلترا وروسيا اجتمع ضباط الجيشين الخصمين ! .

ووقعت معاهدة « سان استفانو » في ٣ اذار ولم يبق غير تعيين الحدود بين الولايات البلقانية .

اما السلطان عبد الحميد فلم يعبأ يوماً ما بالجغرافيه كما ان الضباط الذين قادوا الجيوش في هذه الحرب لم يعرفوا اكثر من الاماكن التي جرت فيها المعارك ولذلك عمد الجميع الى القنصل سيلر الذي عاد حديثاً من مهمته في البلقان .

ورابطت القوى الروسية في سان استفانو اكثر من ستة اشهر ثم انسحبت بعد حفلة عرض كبرى تناولت كل قطع الجيش . ولم يحل حائل مادي بينها وبين العاصمة التركية غير قطع الاسطول الانكليزي المرابط في مياه مرمرا . وفتحت معاهدة سان استفانو طريق البحر المتوسط للروسيين فاخافت انكلترا وخشيت نفوذ الروس وتقدمهم من طريق الهند ، فتصادمت المصالح وكانت الحرب على الابواب طوال اسابيع واشهر ، واخيراً عقد مؤتمر برلين برئاسة بسمارك ، وعلى موائده استطاعت انكلترا ان تخفف خسائر الاتراك وتبعد الروسيين عن شواطىء البحر الابيض ! . .

وقد مثل تركيا في المؤتمر كل من علي باشا الالماني الاصل وكرنيودوري باشا اليوناني الاصل ، والى جانب بسمارك ودزرائيلي ،

كان غروتشكوف رئيس الوزارة الروسية واللورد سليزبوري والكونت شوفالوف والمسيو وادنتون الفرنسي والكونت كورتي الايطالي وقد اخاف الاسطول الانكليزي روسيا كثيراً واهاب البرنس غورتشكوف الى التصريح في المؤتمر بان روسيا خسرت امئة الف جندي ومليون روبل من دون مقابل » .

وتناولت انكلترا جزيرة قبرص منحة من السلطان عبد الحميد مقابل خدمات اللورد بيكنر فلد ووعده بمنع الجيوش الروسية من التقدم في البلقان واكتساح اراضي جديدة .

واقتنع دزرائيلي بان سياسته ارجعت البلقان الى ما كانت عليه سابقاً ولذلك صرح لالوف الانكليز الذين وقفوا لتحيته والهتاف له عند رجوعه من برلين : « جئتكم بصلح شريف » .

واحزنت نتائج مؤتمر برلين الكثيرين لا سيما بلغاريا ، فقد ذهبت بلغاريا التي اوجدتها معاهدة سان استفانو وقسمت الى الشمال والجنوب على ان تبقى الشمالية ولاية عثمانية مستقلة والجنوبية باسم : الروملي الشرقية ، تتبع حكومة السلطان مباشرة ، واعترف باستقلال الصرب ورومانيا ، كما ثبت الاعتراف باستقلال الجبل الاسود . ووعدت النمسا بمقاطعتي البوسنه والهرسك ، وامنت فرنسا غدم بحث وضعيتي سوريا ومصر . .

اما القيصر الكسندر الثاني فقد جن غضباً لانه اعتمد على بسمارك ومعاونة بسمارك الذي حول وجهه تجاه النمسا وحافظ على الحياد التام بصفته رئيساً للمؤتمر تاركاً الحبل على الغارب للورد بيكنز فيلد الذي استطاع ان يهيمن على المؤتمر بمهارة غريبة .

وبعد ان ارفض المؤتمر شكرت كل من انكلترا وتركيا الله اولاً ودزرائيلي ثانياً .

* * *

ولا تعد خسائر السلطان بما يذكر اذ قيست بنفسية العصر ، ففكرة استيلاء روسيا على القسطنطينية كانت تجول في مخيلة كل سياسي ولم تقرب روسيا من هدفها قربها منه في سان استفانو لكن خطر الحرب التي هددت باعلانه انكلترا وحالفتها النمسا والمانيا حال دون احتلال قوى روسيا العاصمة التركية .

وبقي الاسطول الانكليزي في مياه مرمرا حتى تشرين الاول عام ١٨٧٨ وكنا نشاهد قطعاته من شرفات المدرسة تمخر عباب البحر امامنا .

ثم عقب هذه الحادثة تعددت زيارة الاساطيل الأوروبية مجتمعة بما فيها الاسطول الاميركي . وكنا في كل مرة تزور الاساطيل فيها مياه العاصمة نمرح ونلهو نظراً لتكاثر حفلات الرقص في السفارات ومع ان هذه الاساطيل كانت ترسل للمحافظة على عاصمة الترك بالظاهر فلم نشك يوماً ما بنوايا مرسليها .

وكان السلطان عبد الحميد يعهد الى مراكبه الحربية القيام ببعض الشؤون والمهمات لكنه لم يعمد الى المناورات البحرية وترك القطع من دون اصلاح لانه كان يخاف قوة الاسطول الذي كانت له اليد الاولى في خلع السلطانين السابقين وهكذا اعتلى السلطان عبد الحميد العرش ولدولته اسطول كبير وترك العرش بعد ان ضعف الاسطول واضمحلت قوى البحرية العثمانية .

* * *

وفي اوائل عهد السلطان عبد الحميد اخذت روح التقدم تدب في جميع انحاء المملكة لا سيما في بلغاريا وبدأت صوفيا عاصمة البلغار تحتل مركزاً مهماً في العالم السياسي . وهكذا اصبح لجغرافية البلقان الشأن الكبير في رؤوس ساسة الغرب الذين لم يفكروا بعد ذلك بتوقيع المعاهدات العالمية من دون اي المام بالمقاطعات المبحوث عنها بالنصوص .

وبدأ السلطان الجديد حكمه وكل شيء ينم عن امل بالتقدم والنجاح ، بالرغم من خسارة بعض المقاطعات وحالة الجيش والاسطول حسنة جداً وكان الشعب تواقاً الى التقدم في ميادين التهذيب والتجارة والعلاقات الدولية . فماذا صنع السلطان ؟ . . .

اقفل ابواب القرن الذهبي حاجزاً الاسطول وثبط همم العاملين بالجيش وابعد عن العاصمة كل مفكري الاتراك ومصلحيهم . ومع انه عرف فيما بعد بادهى حكام أوروبا فهو لم يستعمل مواهبه في سبيل بلاده ومملكته .

وكم كان الاتراك يريدون خلعه فلم يتمكنوا من ذلك لانه استطاع ان يحول دون اي اجتماع سياسي وهذا ما اظهرته طريقة حله البرلمان الاول . وفي عهده فقدت الثقة داخل القصر وخارجه . فقد استعمل جيشاً من الجواسيس يعاونونه في تنفيذ مآربه وجيشاً آخر من الجواسيس على الجواسيس . وكان الشعب تحت المراقبة الدائمة لا يدري افراده متى يتاح لهم فرص التحدث بحرية . اما حرية الصحافة فأمل منشود وحلم جميل ، وكلمات (نجاح ، حرية ، مساواة كان محرم التلفظ بها . حتى ان الشعب اعتقد بان الكثيرين من مفكري الاتراك اصابهم ما اصاب مدحت باشا . وراقب قلم المطبوعات بشدة

جميع المراسلات الخاصة وحظر على الصحف الأوروبية الدخول الى البلاد وعلى الصغار من الاتراك التعلم في المدارس الاجنبية .

وهكذا تقاطر الطلاب من الولايات البعيدة على المدارس الاجنبية ولولا وجود صناديق من البريد خاصة بالأوروبيين لكان المضي بالمشاريع التهذيبية مستحيلا وعاش الأوروبيون في العاصمة بظل الامتيازات الاجنبية ، وبفضلها تمتعوا بصناديقهم البريدية التي تشبه الصندوق الاول الذي اوجده بحارة جنوا في القرن الثامن عشر في مدينة غلطه . واستعمل الاميركيون الصندوق الانكليزي وظلوا يستعملونه حتى اقفلته الجمهورية التركية حديثاً .

واثرت حوادث عهد عبد الحميد في الحياة الاجتماعية في المدرسة وخارجها فقد شد الخناق على المسافرين والطلاب الذين يقصدون العاصمة . وكانت مصلحة السفر ودوائر (الباس بور) تعرقل كل طالب حتى ان احدى طالباتنا اضطرت لمراجعة الدائرة سبع مرات قبل ان تتمكن من التأشير على الجواز ولما ودعتنا اخيراً في الصباح اعتقدنا اننا سنراها مساء !

وانخرطت بعض فتيات الاتراك في عداد طالبات المدرسة بالرغم من الصعوبات الكثيرة وفي طليعتهن ابنة المرأة الشركسية في حرم السلطان عبد العزيز التي تزوجت من كولونيل عسكري بعد وفاة السلطان المذكور .

وكانت الافكار الجديدة تتغلغل حتى في صدور العائلة السلطانية . فقد كان للسلطان شقيقة تقطن قصراً على البسفور قررت ارسال اولادها الى مدرستنا فمنعها السلطان عندما وقف على الخبر . ولكنها لم تمتنع في ذلك العصر عن ركوب الخيل ومرافقة الأوروبيين

والأوروبيات في نزهـاتهم عـلى شـواطىء البسفـور ووراء مـرتفعـات (بيرا) . .

ولا ننكر على السلطان عنايته بـالصحة العـامة في العـاصمة فقـد نـظمت المحاجـر الصحية في ايـامـه واتخـذت التـدابـير التي تحـول دون انتشـار الكوليـرا وغيـرهـا من الاوبئة . وافتتحت المـدرسـة الـطبيـة في « حيدر باشا » واخذ اطبـاء الحرم السلطاني وقـابلاتـه يفدون الى المعهـد الجديد لاستماع المحاضرات .

* * *

ويعود الاقتراح باستعمال الاحـرف اللاتينيـة للكتابـة التركيـة الى ذلك العهد ولم تنفذ هذه الفكرة الا على عهد الجمهورية .

فالاحرف العربية تشبه الاحرف الاختزالية الاجنبيـة ! وهذا عـلى مـا اعتقد ممـا ادى الى تقهقر (التهـذيب في تركيـا) لان تعلم الاحـرف العربية لم يكن بالسهل ابداً لا سيما قراءة الخط .

وكنا نتلقى بعض البرقيات التركيـة ولصعوبـة تفهمها كنـا نحيلها على أصدقائنا الاتراك الذين كانوا يجـدون منتهى الصعوبـات في حل رمـوزها (. . !) وفي اكثر الاحيان كانوا يـوجهون لنـا الاسئلة عما اذا كنـا نود تفسـير برقيات ام لا .

وبقيت النســاء في معـزل عن البيئـة الاجتمـاعيــة اثنـاء حكم السلطان عبد الحميد وحافظن عـلى البراقـع البيضاء المثلثـة الشكل حتى آخـر القرن التـاسع عشـر . اما الاطبـاء فلم يسمح لهم بـدخول الحـرم واذا دعي الطبيب لعيادة مريضة كـانت تمد يـدها من وراء السـتار وعلى الحكيم ان يكتفي بذلك .

وحدث مرة ان طبيب المدرسة الهنغاري كان يتنزه خارج المدينة فسمع صراخاً شديداً فسأل الخادم عن السبب فاجابه بان سيدته تتألم من مرض عضال فقال له :

ـ قل لسيدتك انني طبيب واكون سعيداً اذا قمت بهذه المهمة فاطاع الخادم وعاد بعد دقائق يقول بان سيده يفضل ان تموت زوجته على ان يسمح للطبيب ان يرى وجهها . وهكذا تركت السيدة تعاني آلام الموت ووقف الطبيب بعيداً تمنعه التقاليد من مساعدة المسكينة وتخفيف آلامها .

* * *

وترتكز عظمة الامم ونهضتها على عاملي الثراء والجيش . ولم تكن خزينة السلطان تمكنه من التفكير بالفتح ، فقد كانت خزانة فارغة اما الجيش فعدده كان لا يزال كبيرا .

ولما لم يفكر السلطان بالاصلاح مطلقاً فقد تركت الرقابة المالية الى لجنة اجنبية مؤلفة من اصحاب اسهم لديون الانكليز والهولنديين والافرنسيين والالمان والنمساويين والايطاليين .

وشيدت في العاصمة بناية للديون العمومية الجديدة وفوضت اللجنة العليا بجميع ضرائب الملح والخمر والدخان والتمغة . وفي بعض المقاطعات الضرائب على الحرير وهذا ما زاد عائدات الدولة ومكنها من دفع ديونها بالتدريج . ولذلك حافظت عليه الحكومة الجديدة بعد انقلاب ١٩٠٨ .

وتمسكت الحكومة بكل التقاليد القديمة التي تحول دون التفكير الاوروبي الجديد . فالاتراك ثابروا على اعتماد الساعة الشرقية في

اوقاتهم ولم يكن من السهل اقناع المستفسرين منهم عن غرابة التغيير في ميعاد غروب الشمس في كل يوم . وارى ان اينشتين نفسه لا يتوفق الى اقناع التركي بافضلية الطريقة الغربية وكنت اضطر دائماً ان اجيب على وابل الاسئلة التي يلقيها عليَّ السياح الاجانب الذين يطلبون اليَّ التوفيق بين الساعة الشرقية والساعة الغربية .

وتعلق الاتراك باذيال الحساب القمري فكانت السنة تنقص ١١ يوماً عن السنة الشمسية . وكان شهر رمضان يأتي تارة في الصيف وطوراً في الشتاء . والمسلمون مكلفون بقضاء فريضة صيامه من الصباح الى المساء دون اكل وشرب حتى في ايام الصيف الحارة وكنا نشاهد فقراء العمال الاتقياء يقفون مساء حاملين قطع الخبز وحبات الزيتون وامامهم اباريق الماء منتظرين اطلاق مدفع الافطار . وشهر رمضان ضربة كبرى على التجارة ؟ لان التعامل مع الجياع من التجار بعد الظهر صعب جداً وهم ينامون قبل الظهر نظراً لقضائهم طول الليل وهم يأكلون وكان الاختلاف في قضية الوقت يحدث فوضى ، فعيد ميلاد المسلم يدور مع ايام السنة فهو تارة في تشرين وطوراً في نيسان . هكذا يوم البطالة ، فالمسلمون يقدسون الجمعة واليهود السبت والمسيحيون الاحد : وانني اعرف متجراً في العاصمة عماله يهود ومسلمون ومسيحيون يعيد كل في يومه ويحافظ المتجر على العمل طوال ايام الاسبوع .

وحافظ الاتراك على طرق معيشتهم الشرقية فالتركي يفضل ان يعيش سعيداً من ان يجمع المال ويدخره وكانت قصورهم ملأى بالتحف الثمينة التي تعد ثروة بحد ذاتها فلم يعبأ احد منهم باستغلالها . وكم يحب التركي الجلوس في منتزهات القسطنطينية وتحت

الاشجار الغضة متلذذاً متخيلاً والى جانبه (نارجيلته) الفاخرة واجابني صديق تركي زار اميركا عن رأيه في نيويورك قائلاً : (لا يعرفون اهمية الحياة في نيويورك !) .

وارادت احدى طالباتنا المتهيات ان تفرش غرفتها الخاصة على الطريقة الاميركية وبعد ان علقت بعض الصور على الحائط لم يعجبها المنظر فعمدت الى الاثاث الشرقي . ولما زرتها فيها بعد في نفس الغرفة وقع نظري على الطنافس الشرقية الفاخرة والدواوين المريحة والسجاد العجمي الممتاز . ويعني الاتراك بتكثير منافذ الغرف . فالغرفة التي وصفتها ملأى بالمنافذ يستطيع منها الانسان الاشراف على مناظر الطبيعة الجذابة والتمتع بألوان الشفق الزاهية . ومن ميزات الاتراك محافظتهم الشديدة واحترامهم الكبير لمعابدهم . وكانت ابواب المساجد القديمة مفتوحة على مصراعيها للمتعبدين الذين كانوا دائماً يذكرون مشيديها بالتجلة والاحترام .

واثناء حكم عبد الحميد خاضت الدولة سلسلة متصلة من الحروب فغصت باحات العاصمة باللاجئين من الفقراء الذين وجدوا بالمساجد احسن تعزية لهم عن فقدانهم منازلهم .

ومن العادات التي روعيت اثناء حكم عبد الحميد الاحتفال باطلاق المدافع من البحر والبر ايام الاعياد الكبيرة . وفي هذه البقع يزيد جلال مناظر البوسفور الاعياد رونقاً ويلقي عليها وشاحاً من الابهة والعظمة اكثر من كل بقعة من العالم . وفي سني حكمه الاول عاش السلطان في قصر (ضولمه باغجه) في جو من الحذر والتيقظ . وفي هذا القصر نما حبه للفن التصويري فجمع من القطع مجموعة جيدة نفيسة . وقد تلطف وارى بنفسه المفوض الاميركي ليو ولاس مجموعته

النادرة حتى انه اراد ان يقدم صورة الى زوجة السفير الذي اعتذر عن قبولها نظراً لتناقض ذلك مع السلك السياسي .

واخيراً استولى الخوف على السلطان فإنتقل بحرمه الى قصر يلدز بعد ان زاد على بنائه وعزز اسواره وعلى مقربة من القصر بحيرة صغيرة مجهزة بالقوارب لخدمة جلالته . وبنى السلطان في زوايا الحدائق في الاماكن المحجوبة عن الانظار محطات صغيرة مبطنة الجوانب كان يستعملها للهو والعبث . اما يلدز فكان اعلى تلة تشرف على العاصمة ، كانت تشعشع منه الانوار الكهربائية في الليل ترسل الاشعة الى جميع نوافذ المنازل . وحظر السلطان استعمال الكهرباء في غير قصره لانّه كان يخاف من الكهرباء ويعتقد ان هنالك صلة بين (الدينمو) محرك الكهرباء وبين الديناميت .

وفي سنة ١٨٨٨ انجزت اعمال الخط الحديدي بين فينا والعاصمة التركية واصبحنا على اتصال مباشر بالعالم الأوروبي . وكما كانت الرحلة الاولى جميلة فقد سار القطار في المراحل الاولى في خط متكسر لان الدولة كانت تدفع ضمانة كيلو مترية للشركة فكنا نطل من النافذة الى الشمال وبعد مسير دقائق نشرف من نفس النافذة على الجنوب .

وبعد انتقال السلطان عبد الحميد الى يلدز اشتد اعتسافه وكثر تجبره وكثرت جواسيسه الذين كانوا يرسلون يومياً تقاريرهم المفصلة الى القصر وكل واحد منهم ينتظر ساعة القبض عليه . اما السلطان فكان يصرف ساعات طويلة في كل يوم يطالع هذه التقارير .

وشعرنا نحن في مدرسة (سكوداري) بالضغط والشدة والدسائس والمكائد ومع ذلك فقد ناضلنا وتقدمنا .

ففي سنـة ١٨٩٠ اعترفت ولايـة مـاشـوسيس بمـدرستنـا ككليـة فـاحتفلنا بتبـديل اسم المـدرسة الى الكليـة الاميركيـة للبنات ، احتفـالاً بـاهـراً وحضـر حفلة الغـداء اكـثر من تسعـين مـدعـواً وتليت الخـطب بجميع اللغات وعينت رئيسـة للكلية الجـديدة الآنسـة فلورنس فانشـام مـديـرة فقضت معنـا ١٤ سنـة كـانت فيهـا محط حب الـطالبـات واحترامهن .

الفصل الثامن

واعظم رواية مثلت على عهد السلطان عبد الحميد وقام بالدور الاول فيها القيصر الالماني ، كانت سكة حديد بغداد . كما ان قنال السويس جاء على عهد عبد العزيز . وهكذا بدأ القطار الحديث يهدد مستقبل الجمل الاسيوي في جميع انحاء الامبراطورية لان خطوط المشروع الجديد ستصل اجزاء الدولة بشبكة واسعة تمر ببغداد وتنتهي في احدى الموانىء على البحر الابيض . ومع ما يأمله الاقتصاديون من التحسينات على الحياة الاقتصادية ، فقد احدث الخط الجديد ثورة في الاسباب النقلية التي كانت تعتمد على ظهور الجمال .

وزار القيصر الالماني العاصمة التركية ثلاث زيارات تجلت فيها الابهة والعظمة فالمانيا كغيرها من الدول الغربية فكرت كثيراً بالاستيلاء على المقاطعات التركية وحلم وليم الثاني بضم آسيا الصغرى وجعل القسطنطينية مركز النفوذ الجرماني في الشرق فجاء العاصمة التركية زائراً !

زار القيصر القسطنطينية للمرة الاولى عام ١٨٨٩ والسلطان محاصر في يلدز لا يخرج منه ابداً الا مرة في السنة للصلاة في جامع اياصوفيا وكل نهار جمعة للسلاملك . واعلن القيصر عن عزمه بالمجيء

على ظهر يخته كما انه رغب الى السلطان ملاقاته على باب قصر (ضولمه باغجه) الكبير حيث اعتزم القيصر النزول الى البر وكانت هذه صدمة كبيرة للتقاليد الشرقية وامثولة للادب الغربي ومراسيم الاتيكات التي ارادت ان يهيمن على عادة تفوق السلطان على كل شيء ".

- وبعد مفاوضات وجدل قبل السلطان وامر باعداد عربتين فاخرتين تسيران في الطليعة على ان تكون الاولى افخم من الثانية ، لانه اعدها لنفسه وللقيصر . وهنا لسوء الحظ انتصرت التقاليد الغربية اذ اراد القيصر ان يمتطي السلطان العربة الاولى الى جانب القيصرة ويركب هو الثانية .

وفي تلك الايام يصعب جداً ان تتصور الدهشة التي تستولي على المؤمنين عندما يرون امامهم الاكبر يسير في عربة مكشوفة والى يمينه سيدة !. وغربية !. . مع انها قيصرة !. .

وبالكاد صدق الناس اعينهم . وبالطبع صادف السلطان اثناء هذه الزيارة الكثير من الامور التي هزت عصبيته لكنها حدثت بعيداً عن الاعين ، ضمن جدران القصر . .

واستطاع القيصر في زيارته الاولى ان ينتزع وعداً من السلطان بتمديد الخطوط الحديدية الى قونية . وبذلك بدأ عهد سكة حديد بغداد . والظاهر ان القيصر كان يفكر باكثر من ضم تركيا فقد كان يطمح الى ما سماه : « امتلاك العالم » ويقال بان طموحه سبب خلافه الاول مع بسمارك الذي اجابه مبتسماً : « لا يوجد شيء اسمه امتلاك العالم . . » .

* * *

وفي عـام ١٨٩٧ ابتدأت الحـرب التركيـة اليـونـانيـة وكـانت قـد اندلعت السنة النيران في حوادث كريد فامتدت الى الـدولتين ، ولم يـدع ممثلو الـدول الكبرى في تـركيا السلطان ينفـرد في حل هـذه القضيـة بـل كانوا يجتمعون اليه دائماً لبحث مختلف المواقف .

وتأثر الامبراطور الالماني واهتم للحرب اهتماماً عظيما فكان يدعـو اليه السفراء واحداً واحداً . وكان الجيش قد تـدرب على ايـدي الضباط الالمان زيادة على ذلك ارسـل الامبراطـور قائـداً عسكريـا كبيراً ليسـاعد صديقه السلطان .

وادى انتصـار تركيـا الى عقد معـاهدة القسـطنطينيـة في ٩ تشرين الثاني ١٨٩٧ فشهدت العاصمة مرة اخرى مجمـوعة الاسـاطيل الأوروبية تشق عباب الدردنيل وترابط عند شواطيء مرمره . ونقـل احدهم قصـة عن فلاحين تركيين شاهدا المراكب الحربية للمرة الاولى فسأل الاول :

ـ ما هي هذه المراكب ؟

فاجابه رفيقه : هي المراكب التي غنمناها من اليونانيين ! .

والاغلب على الظن ان هذه الرواية حقيقية فعند وقوع اضـطراب طفيف في اسيـا الصغرى كـانت الاسـاطيـل تسـرع الى مـرمـرا ويحمـل السفراء انذارات دولهم الى الباب العالي !

* * *

واقـدمت عائلتـان تركيتـان غير « كلستـان عصمت » على ارسـال فتاتيهما الى المدرسة بـالرغم من تحـذير السلطان بنـاء على رغبـة الاب في العـائلة الاولى والام في الثـانيـة . وكـان اديب بـك المـوظف في البـلاط

السلطاني الاب الاول الذي تجاسر على هذا الامر فجاء بفتاته الصغيرة خالدة اديب الى المدرسة فانتسبت الى الصفوف الابتدائية . وكانت ثيابها الحريرية الحمراء وعينيها البراقتين وخجلها الشرقي محط انظار الجميع !...

واضطر غضب السلطان أديب بك الى اخراج صغيرته من المدرسة بعد ان تعلمت الانكليزية واصبحت قادرة على الكتابة والقراءة بسهولة . وكانت خالده اديب قد تعرفت اثناء اقامتها بيننا الى كتاب في المكتبة بعنوان (الام والمنزل) فاعجبها كثيراً ونقلته الى لغتها التركية فسر ابوها وطبع بموافقة السلطان الف نسخة من الكتاب وزعها على العائلات التركية .

ويظهر ان عملها هذا راق جلالة السلطان فانعم عليها بوسام لقاء خدمتها للعائلة التركية .. وعادت الينا بعد اعوام قليلة الآنسة اديب وبقيت في المدرسة حتى نالت شهادتها فكانت التركية الاولى التي نالت بكلوريوس في العلوم من مدرستنا . وكان جزاء والدها على تجاسره ان حرم من الترقي في وظيفته !. ومنذ ذلك الحين بدأت خالدة اديب تعرف في حياتها السياسية والاجتماعية في تركيا والولايات المتحدة . والفت عدة كتب باللغتين الانكليزية والتركية وكانت التركية الاولى التي اعتلت المنبر وخطبت في الجنود وساحات القتال اثناء الحرب وعينت في الجيش برتبة (كويورال) ثم ارتقت الى رتبة (سرجان ماجور) .

وكانت وزوجها الدكتور عدنان بك الساعد الايمن للغازي مصطفى كمال باشا في تنظيم الجمهورية التركية الفتية ، فعين زوجها في مراكز عالية ، كما انه اشغل منصب نيابة الرياسة في المجلس

الوطني الكبير .

وكانت خالدة اديب المرأة الاولى التي دعيت الى الاشتراك الفعلي بمؤسسة وليمتون السياسية في ماشوستس صيف ١٩٢٨ .

وكانت طالبتنا التركية الثالثة التي نالت من غضب السلطان الفتاة نظله خالد وقد ادخلتها امها الى المدرسة وهي امرأة جميلة جداً ابنة رجل تركي شغل وظيفة كبرى في بلاط احد السلاطين السابقين . وعاش هذا الموظف في قصره على البسفور وكان له ٦ زوجات اصغرهن شركسية جميلة تزوج منها لجمالها فقط وهذه هي جدة نظله . تذكر نظله والدها راكباً على جواد مطهم ينحني قبل ذهابه الى البلاط ليكلمها وهي لا تزال صغيرة .

واكتشفت جواسيس عبد الحميد نظله ، فهدد السلطان والدها الذي اضطر مراراً الى اخراجها من المدرسة . وفي المنزل تلجأ الفتاة الى السلاح القديم البكاء فيتحمس الاب ويقول : « وما هي قيمة رأسي اذا كانت زوجتي تبكي دائماً ؟ » فتعود الفتاة بهذه الواسطة الى المدرسة .

ولغبطة الابوين انهت الفتاة دروسها اخيراً ونالت شهادة المدرسة فتزوجت من يوسف كمال بك في انقره الذي عين سفيراً للدولة التركية في لندن .

وفي ايام عبد الحميد ايضاً انهت الالبانية الاولى دروسها في مدرستنا ورجعت الى بلادها ، فكانت علماً للعلم والمعرفة تسعى جهدها لنشر المعارف بلغتها القومية . وهكذا اصبحت الانسة كرياس موجدة النزعة الالبانية . ومن ثم اتمت دروسها في اثناء الحرب الكبرى ، وقد ترأست الوفد الالباني في مؤتمر فرساي عقب الحرب

الكبرى .

وكـانت عمدة المـدرسة في اول الامـر عـرضـة للتغيـير والتبديـل ولذلك فقد حافظنا على سيدتين احدثتا تأثيـراً كبيراً في حيـاتنا المـدرسية وهمـا الدكتـوره ايزابـل فرنسيس دود الاخصـائية في علم الاركيـولـوجي والتي اوجدت المتحف في المدرسة وكانت سبب نموه ونجاحـه والخازنـة ايـدا بـريم التي جـرصت كثيـراً عـلى انقـاص النفقـات الى الحـد الضروري .

وبمـا انـه لم يكن لـدينـا وسـائط سحـرية لامـلاء الخـزانـة وسـد العجز ، فكنت كرئيسة للمدرسة مضطرة لوضع الخطط والاشراف على تنفيـذهـا . وكنت اجـوب اسـواق اميـركـا متنقلة من مصـرف الى اخـر لجمع المال اللازم . ومرة طردتني سيدة من مكتبها بفظاظـة لكنها عـادت وشيـدت بنـايـة . ومـرة اخـرى زرت فيهـا مكتب احـد كبـار الاغنيـاء فصـرفني بلطف لكنني عرفت فيـا بعد بـان ١٦ رئيس مدرسـة زاروه في ذلك اليوم يطلبون الاموال والمساعدات لمؤسساتهم .

وقد اتخذت مهنة الشحاذة طوال اربعة اعوام فبدأت عمـلي بغرفـة صغيـرة في احدى بنـايات نيـويـورك المجهـولـة فجمعت في اخـر السنـة ١٥٠٠ دولار لكنني تمكنت في نهاية الثلاثـة سنوات البـاقية من جمـع ٦٠ الـف دولاراً عـدت بعدهـا الى العـاصمـة التـركيـة . وخسـرنـا في عـام ١٩٠٥ احدى بنايـاتنا في اسكي داري ، التي احتـرقت اثناء الليـل وكنا بعيـدين عن كل اصـدقائنـا الاميركيـين فاضـطررنا لاستخـدام البيـوت المجاورة للطالبات اللواتي اظهرن رباطة جأش غـريبة وانتشـرت الاخبار عن احـراق البنايـة فكـان الابـاء يفـدون بصـورة مستمـرة للسؤال عن بناتهن .

ووجدنا صعوبات كثيرة خصوصاً فيما يتعلق بالمختبرات التي احترقت مع البناية وقد اضطرت الآنسة دود ان تجمع آثارها في امكنة خاصة حتى احتفظت بالمومياء المصرية تحت السرير فهاجمتها جيوش الجراذين .

وبلغنا ان عائلة قديمة تريد ان تبيع ممتلكاتها الواقعة في منطقة (ارنكوي) على الشاطىء الأوروبي وهي عبارة عن بنايتين صغيرتين وممرات مغروسة بالاشجار فاسرع الدكتور (بيت) احد اعضاء لجنة الامناء وابتاعها فاضطررت لجمع المال اللازم للعودة الى نيويورك والاستعطاء من المتمولين مدة سنتين .

وفي عهد عبد الحميد لم يكن القانون يخولنا ابتياعها مع انها كانت ملك رجل اميركي يقطن باريس والذي كان يريد بيعها لنا باسعار متهاودة نظراً لعدم وجود وريث له في العاصمة .

وقد مررت في طريقي الى اميركا بباريس واجتمعت الى المالك واتفقنا على الثمن وهو ٧٥ الف دولار على ان يكتب ورقة للبيع باسم شخص معين فاذا اجازت الحكومة التركية المبيع تمت الصفقة واتخذت الشكل القانوني . فاقدمنا اخيراً على كتابة العقد ودفعنا المال مع ما في ذلك من الخطر . وعندما تقدم الدكتور بيت المحامي المعروف يطلب تصديق العقد من المحاكم التركية وعرف السلطان مانع وحال دون الاجازة بحجة انه كان عازماً على جعلها (دوطه) لاحدى بناته نظراً لجمال موقعها .

ولما اصر السلطان على رأيه فكرنا بجعلها قضية سياسية عالمية فسافرت الى واشنطن للاجتماع الى الرئيس روزفلت ، واقدمت على ذلك متشجعة بوجود الشريف اوسكار ستروس الذي اشغل منصب

السفير الاميركي في العاصمة التركية مرتين ، وزيراً للتجارة في الوزارة الاميركية . وبواسطته طلبنا رسمياً الى الحكومة الاميركية التدخل بشأن اجازة البيع حقوقياً . وقد كان الشريف سثمان الوزير الاميركي في تركيا آنذاك موجوداً في واشنطن يسعى لرفع المفوضية الأميركية الى سفارة اسوة ببقية الدول .

وانتظرنا طويلاً بدون جدوى فسافرت للمرة الثانية الى واشنطن يرافقني الاستاذ روبرت ايلي وقابلنا المستر روت وزير الداخلية وطلبنا اليه التدخل فلم يعتن كثيراً بالامر لانه لم يكن على علم من وجود مدرستنا ثم عدنا ورفعنا مذكرة خاصة الى الحكومة الاميركية وقابلت للمرة الثانية الرئيس روزفلت برفقة فريق من كبار الاساتذة فلاحظنا ان حكومتنا ليست على معرفة بالامور الدولية ولا تأبه لها كثيراً .

وبالرغم من ذلك ابرقت لنا الحكومة الاميركية في نيسان سنة ١٩٠٨ بضرورة الاستغناء عن الارض واعطتها للسلطان عبد الحميد ، لكن الدكتور (بيت) كان محتاطاً للامر فقد وجد في صك البيع مادة تحظر نقل الارض وبيعها لاحد غيرنا . فاكتفينا بما وصلنا اليه وانتظرنا فرصة اخرى .

ذكرت الجرائد بجرأة خبر اعادة الدستور فاضطربت الافكار في القسطنطينية واخذت الحماسة تدب في الصدور وكان الاتفاق على اعلان الثورة يوم الاحتفال بذكرى تنصيب السلطان غير ان الحوادث عملت على الاسراع باعلان الثورة ، وبدأ السلطان يستلم برقيات التهديد بالثورة اذا لم يعلن الدستور منذ ٢٢ تموز .

وفي صباح اليوم التالي اجتاحت العاصمة موجة من السرور والفرح فقد اعلنت الحرية واطلقت الاقلام وظهرت كلمات (حرية

مساواة اخاء عدالة) في الصفحة الاولى وتجمع الشعب من مختلف الطوائف والنحل في شوارع المدينة يهتف للحرية والعصر الجديد وتعانق المسلم والمسيحي واليهودي وذرف الجميع دموع الفرح والغبطة مبتهجين بالعصر الجديد عصر الحرية والمساواة ، فلم يعد في الافق غير هدف واحد يسعى اليه الجميع وهو (العثمانية) . وفي الشوارع ايضاً تعانقت المسلمات والمسيحيات ودموعهن تتساقط تحت الملايات وتصافح الكهنة ورجال الشرع الاسلامي ووقف الجميع يشكرون الله على نعمته ومنحته .

الفصل التاسع

وشعر السلطان بان سيطرته تتضاءل فأخذ يزيد اهمية مركزه كخليفة العالم الاسلامي الذي يزيد عدده عن الثلاثمئة وخمسين مليون نسمة .

ووضع خطة تصل قلب العالم الاسلامي الديني بالسكة الحديدية تمر خطوطها في دمشق جنوباً وتتجه الى فلسطين والمدينة ومكه في بلاد العرب ثم تتصل بشعبة خط حديد برلين ـ بغداد وبعدها تسير على شواطىء البحر الاحمر على بعد مئتي ميل من شرقي السويس . وكان سكرتير السلطان السوري ـ احمد عزة باشا العابد ـ ذكياً جداً يعاونه في القيام باعماله بنشاط .

وكان الهدف من مد الخط الحديدي متعددة الاتجاهات . فهو من جهة يربط العالم الاسلامي ببعضه البعض ومن جهة ثانية يفيد لنقل المعدات الحربية الى قنال السويس والبحر الاحمر والخليج الفارسي في فترات الخطر كما انه يساعد على اكتساب عطف الوف الحجاج من المسلمين الذين يقصدون الحجاز للحج كل عام .

والحج احدى الفرائض المقدسة المطلوبة من كل مسلم حقيقي .

وكنا في (اسكي داري) نشاهد موكب الحجاج في كل عام وهم في رحلتهم الطويلة الى الاقطار الحجازية ليزوروا الاماكن المقدسة .

وكان مشهد خروج الحجاج بجمالهم وجيادهم من اجمل ما تقع عليه عين الانسان . وكنا نشاهد بين شواطىء البسفور ومحطة حيدر باشا الفرق بين اساليب النقل الحديثة والقديمة . وكانت القاطرات تنقل بسرعة زائدة الاتقياء المسلمين . وفي دمشق تلتقي وفود المدن الاسلامية من جميع الجهات وكلهم يقصدون مكه شاكرون عبد الحميد على خدمته هذه .

وجمعت اموال سكة حديد الحجاز بصورة خاصة تبرع بها المسلمون . وبدأ قائمة التبرع السلطان نفسه وشاع فيها بعد بأن السلطان سبب نقص ميزانية الخط مبلغ سبعماية الف ليرة ذهبية . وقد كثرت التبرعات من المسلمين في جميع انحاء الامبراطورية كما ان الحكومة اقتطعت عشرة بالمئة من رواتب الموظفين .

وبدأت اعمال مد الخطوط في دمشق عام ١٩٠٠ وانتهت بالمدينة المنورة في ٣١ آب ١٩٠٨ يوم عيد جلوس السلطان عبد الحميد على العرش .

* * *

وفي صباح يوم ٢٥ نيسان دخل محمود شوكت باشا العاصمة على رأس جيشه منتصراً فاعاد الاتحاديين الى مراكزهم وكان يشغل وظيفة السكرتير عند محمود شوكت باشا في ذلك العهد مصطفى كمال باشا رئيس الجمهورية التركية الحالي . وكان ذلك اليوم من اعظم ايام تركيا على الاطلاق فلم تسر البواخر في البسفور وكانت العربات تخرج

متتابعة من ابواب القصر السلطاني تقل الحريم وقد جلس الخصيان على المقاعد الامامية . واقفل جسر القرن الذهبي .

وكنا نشهد من مدرستنا اطلاق النار ونصغي الى دوي المدافع تنقل الينا املاً جديداً بعودة الاتحاديين وتطورت الحوادث بصورة سريعة فلم يتمكن السلطان من انتهاج خطة مثمرة !

وفي مساء اليوم الذي احتلت فيه جنود محمود شوكت باشا العاصمة استولت جمعية الاتحاد والترقي على المدينة فرفعنا الراية الاميركية ابتهاجاً .

ونالت جمعية الاتحاد والترقي الفتوى العادية بخلع السلطان وذهب وفد ليقابل السلطان فاستقبله في قاعة جدرانها من المرايا تمكنه رؤ ية كل سلاح يوجه اليه . وارسل السلطان صرخة يأس واغمي عليه وذهب خضاب لحيته وابيض شعر رأسه وكان احب اولاده اليه بصحبته في ذلك الوقت فسمع رجال الوفد بكاءه بعد مبارحتهم الغرفة .

وساد الظلام قصر يلدز في ذلك المساء وحل الرعب في قلوب نساء القصر . ولم يكن حريم عبد الحميد كثير العدد فلم تتجاوز نسائه الاربعمئة ضف اليهن الخدم والموظفين فيبلغ عدد سكان القصر الخمسة الاف نسمة عدا الذين هربوا منه في النهار . .

وكان عبد الحميد آخر السلاطين الذين كان لهم عدد كبير من النساء .

وحدث انني كنت اتنزه قرب القصر في قارب بعد هذه الحوادث فنظر صاحب القارب الى القصر وصرخ بحماس :

ـ كنت في القصر عندما نقلوا السلطان وكنت بواباً احمل المفاتيح .

ـ وماذا حل بك ؟

ـ خشيت ان يمسكوا المفاتيح معي فطرحتها وهربت !

ـ وماذا حل بالنساء ؟

ـ جاء اباؤهن من روسيا واخذوهن الى منازلهن .

ولم يكن من المستطاع نقل النساء الى منازل ابائهن بهذه السرعة فقد نقلوا الى قصر (تشارغان) والى المنازل الملوكية في (سرغاليو) .

وفي اليوم الثاني شاهد سكان (بارا) موكباً من الخصيان والعبيد والجواسيس تسوقهم مفرزة من الجنود في الشوارع .

ونقل السلطان الى سالونيك حيث بقي عدة سنوات وسمح له بثلاث سلطانات واربع محظيات وحاشية لا تتجاوز الثلاثين شخصاً . . . واصطحب ايضاً هراً كان يحبه كثيراً . وهكذا افل نجم عبد الحميد من افق السياسة ! فوجدوا في يلدز ما لا تقل قيمته عن المليون ليرة من الحلى والجواهر كما كان له في البنوك الاوربية ما لا يقل عن المليونين من الليرات الانكليزية هذا عدا عن حسابه مع المصرف الالماني . فهل مد الامبراطور الالماني يد المعونة الى صديقه عبد الحميد ؟ . . هل فكر بمساعدته في ايام محنته ؟ . . بل بالعكس فقد اخذ يتقرب الى اعضاء جمعية الاتحاد والترقي لان اكثرهم درسوا في المانيا ونجحوا . وفي الدقيقة الاخيرة تدخل طالباً عدم اعدام السلطان عبد الحميد والابقاء عليه ، مع ان الاتحاديين لم يفكروا قط باعدامه . . . وهذا هو السلطان الثالث الذي شاهدت خلعه ابان

اقامتي في العاصمة التركية . فخلع عبد العزيز رافقه الحزن لانه لم يكن بمستوى دستور مدحت باشا وخلع مراد رافقه شعور الالم لضعفه ، اما خلع عبد الحميد فقد صفقت له العاصمة طرباً . وبعد اعلان الحرب الكبرى ارجع عبد الحميد الى قصر (بيلرباي) الذي اعد منذ ثلاثين سنة لاستقبال الامبراطورة ايجني .

وانتسبت فتاة تركية حديثة الى المدرسة فسألتها عن مسكنها ، فاجابت :

ـ في قصر (بيلر باي) فوالدي من حرس العجوز عبد الحميد .

فدهشت للهجة الإزدراء التي ترافق اسم هذا السلطان . . .

* * *

وقادوا عبد الحميد الى المحطة . . . وجاؤوا باخيه محمد رشاد الى العرش .

ومن كان ساهراً ذلك الليل راى الحرس يقودون عبد الحميد الى محطة سلونيك حيث ركب القطار الذي سافر بين الساعة الثانيه والثالثة صباحاً .

وللمرة الاولى ركب السلطان العربة الى جنب زوجته . . . وفي العربات المقفلة جلست السلطانات الثلاث والمحظيات الاربع . وهو لم يزر قبلاً محطات استنبول ابداً . ولم يركب القطار منذ حداثته يوم سافر الى اوربا برفقة عمه السلطان عبد العزيز .

وفي الصباح افاق السكان في العاصمة وعلى رأس الدولة سلطان جديد هو محمد رشاد الخامس .

والبرنس رشاد افندي قضى ٤٨ سنة في الاسر منذ وفاة ابيه مراقباً بالجواسيس فكان يعرف انه مراقب لكنه لم يكن يعلم من هم الجواسيس .

وفي اليوم الذي نقل فيه عبد الحميد من القصر ذهب وفد ينقل للبرنس رشاد خبر تعيينه سلطاناً فلم يصدق . وفي اليوم الثاني اصبح الحاكم المالك واختفى سكان يلدز الكثيرون بسرعة زائدة فاذا سألت تركيا عن ذلك اجابك بهزة كتفه التركية : لا اعرف .

ولما اعتلى السلطان رشاد العرش كان في الخامسة والستين من عمره ، وهو شريف جداً يريد ان يكون حاكماً عاقلاً .

واصطفت الجنود في جميع شوارع العاصمة ووضعت بطاريات المدافع في مواضع متعددة . واحتشدت الوف الناس في النوافذ وعلى السطوح لمشاهدة السلطان الجديد . وكانت المدافع تدوي كل ثلاثين ثانية فيرافق الدوي الهتاف للحرية وللحياة الجديدة .

وقلد السلطان سيف عثمان في جامع ايوب في القرن الذهبي . وكان السلطان الجديد ديمقراطياً فجاء في سيارة الى الجامع يحمل بيده علماً احمر عليه الطغراء الشاهانية وكانت جميع مظاهره تدل على النبل وكرم الخلق فلم يظهر السفراء بالبستهم الرسمية وكان افخم شيء في الموكب عربات علماء الشرع الاسلامي .

وكان محمد رشاد الخامس السلطان التركي الاول الذي احتفل بالبرلمان فدعا النواب الى حفلة شائقة في بهو العرش في قصر ضولمه باغجه . وكان جلالته منشرحاً فاستقبل الاعضاء بالابتسام . وعند ذلك وقف الوزراء من جهة وكبار رجال الجيش من جهة ثانية بملابسهم المذهبة وكان النواب بلباس السهرة الأوروبي والقفازات

البيضاء . واظهر السلطان عطفاً خاصاً لرئيس المجلس .

وافتتحت الحفلة بعشر من القرآن الكريم ثم مشى علماء الشرع وعلى رأسهم شيخ الاسلام للتشرف بتقبيل يد السلطان . وتبعهم وزير الاوقاف بلباسه الاخضر ووراءه موظفو الاوقاف بالبسة تتفاوت الوانها حسب درجات المرتدين .

وجاء بطاركة الطوائف المسيحية فاستقبلهم السلطان ببشاشة وترحاب ظاهرين لان سياسة الاتحاديين كانت المساواة بين جميع الطوائف .

والقى بطريرك الارثوذكس بصفته رئيس جميع الاوقاف المسيحية ، كلمة موجزة . وجاء بعد رؤساء الطوائف وفد السفراء واتباعهم ايضاً ، وقد استقبلهم محمد الخامس يحيط به امراء البيت المالك الذين خرجوا من محابسهم بعد خروج عبد الحميد من القصر فتعرفوا الى الحياة خارج القصور للمرة الاولى وامتزجوا بالعالم الاجتماعي فرحين مبتهجين .

وكان شعار العهد الجديد « الحرية » فالاتحاديون لم يفكروا بفصل الدين عن السياسة لكنهم فكروا بتمثيل جميع العناصر في الحكومة مع ابقاء الشريعة السمحاء . وكانت غايتهم شريفة جداً التي سعوا لتحقيقها بمختلف الوسائل فاشرقت شمس جديدة في سماءِ العاصمة ، وخاض الناس في غمرة من الحبور فكان زعماء جميع الطوائف يتزاورون ويتصافحون في الشوارع والطرقات .

ورجعت الى العاصمة التركية في ايلول بعد ان قضيت عامين اجمع المال في اميركا . وللمرة الاولى شعرت بان العصر جديد فقد

استقبلنا بصورة حرة وظهرت الطالبات التركيات المسلمات اللواتي خلعن البراقع داخل الجدران وبانت على وجوههن انوار الحرية والرغبة في العلم .!

ولم نعرف موقف الحكومة الجديدة منا لكنها كانت تشجعنا وتسألنا جميع احتياجاتنا كما انها خصصت مساعدات لبعض الطالبات وارسلتهن الى مدرستنا على ان يعملن في المستقبل كمعلمات في مدارس الحكومة .

وكنا نتحدث بحرية وجرأة عن الاراضي الجديدة على شواطىء البسفور . واظهرت الحكومة السرور لاقتنائنا البقعة الجميلة . وهكذا كان كل شيء يدعو الى الغبطة والانشراح والامل في المستقبل .

* * *

واكبر ميزات عهد الاتحاديين في التاريخ التركي البرلمان الذي عاش من سنة ١٩٠٨ حتى ١٩٢٠ وخصصت لاجتماعاته الندوات هو قصر تشرغان وقد حوى مندوبي جميع العناصر في الدولة .

وكانت اللغة الرسمية اللغة التركية ومع ان النواب قد تلقوا دروسهم بلغاتهم المختلفة فقد كانوا يحسنون اللغة التركية .

وكل من له المام بلغات البلاد يدرك العناصر غير المسلمة من اللغة ففي اللغة التركية حروف يصعب على اليوناني والبلغاري التلفظ بها بسهولة . وكان من المبهج جداً ان يصغي المرء الى هؤلاء السادة يلقون خطبهم بحماس غير آبهين للتلفظ . وقد ضم المجلس نخبة صالحة من خطباء الاتراك فاللغة التركية شائقة صالحة للخطابة . وكنت اسر كثيراً من الذهاب برفقة بعض الاميركيين لحضور جلسات

البرلمان وكان رئيس البرلمان صديقنا يرحب بنا اجمل ترحيب .

وقد اوقف الاتحاديون بوابا خاصاً في قصر تشرغان لمرافقة الاغراب الى جميع انحاء القصر ليطلعهم على آثاره .

وقرروا تدفئة القصر بالبخار غير مراعين طريقة البناء فاحترق القصر وشهد الجموع بحزن شديد منظر رجال الاطفاء يكافحون ألسنة النيران التي التهمت جميع تحف القصر وقاعاته الجميلة وقضت على اجمل وافخم مناظر العهد الغابرة ، وقيض للبرلمان ان يجتمع بعد ذلك في قصر وقفته احدى الاميرات لذلك الامر .

ويدأ الاتحاديون بالاصلاح لانهم جاؤوا الى الحكم يعللون النفس بالاصلاح ويسعون للجنة الارضية وقد سعى الاتحاديون في اول الامر الى تحقيق هدفهم فمنوا بتعيين الحكام العادلين الذين ذهبوا الى وظائفهم في الولايات البعيدة يفكر كل منهم بتعبيد الطرق وبناء الجسور واطلاق حرية الصحافة .

وكان معظم قوات الثورة الاخيرة من العسكريين فصرفوا اهتمامهم الى تحسين الجيش . اما الاسطول التركي الذي سبب عظمة تركيا السياسية فلم يكن بالامكان اصلاحه فافتتحت المدارس الخاصة بالجندرمة في العاصمة وسواها حيث درب الافراد تدريباً حديثاً ساعد كثيرا على الاندماج في ولايات الامبراطورية .

واستفادت المرأة التركية اكثر من غيرها في العهد الجديد ، فقد حقق لها ادارة املاكها بنفسها وبعد ان حظرت عليها العصور الماضية الخروج الى الميدان الاجتماعي ، فجاءها الانقلاب الاخير بحرية التهذيب ، فدخلت المدارس وبدأت تتطور وترقى .

ومرت المس ايزابيل فري الانكليزية في العاصمة في ذلك الوقت حيث اجتمعت بفريق من السيدات وتحدثن عن تهذيب التركيات .

وتهتم التركيات بالطب لان العهد الماضي لم يسمح للاطباء بدخول الحرم وتطبيب السيدات بل ترك امر العناية بالمرضى لبعض النساء اللواتي احترفن الطب من دون اي المام لهن بالفن العلمي .

واخذ الدكتور في مدرستنا يلقي المحاضرات في العناية بالصحة على النساء فتقاطرت السيدات لسماع هذه المحاضرات .

وكان الجمرك من مفاسد العصر الماضي فكان صعب جداً النزول من المركب الى البر فعلى المسافر ان يمتطي قارباً خاصاً بعد ان يتعرض لجيش من السماسرة . واذا كان معه صناديق فيتوجب عليه رشوة الموظفين للتخلص من غلظتهم وظلمهم فتبدلت هذه المظاهر وحل محلها جمرك آخر .

وطهرت الشوارع من الكلاب التي كانت تضايق زائري العاصمة ولم يعد المار يعثر عليها الا في بعض الشوارع القديمة . كما ان الوقت اصبح يتبع الطرق الغربية فكان البعض يتساءل عن ميعاد صلاة المساء .

ويستغرب الكثيرون موقف السلطان من هذه الاصلاحات الجديدة ، فلقد اجتهد السلطان على مجاراة العهد الجديد والحرص على نشر الاصلاح فاطلق سراح الامراء من محابسهم كما انه فتح ابواب جامع ايوب للمرة الاولى في وجه المسيحيين الذين كان محرم عليهم دخول المسجد المقدس .

وكانت حياة محمد الخامس العائلية على غاية من البساطة ومع

انه تبع عادة تعدد الزوجات كبقية ابناء جنسه فلم يكن عنده حرم بالمعنى الحقيقي بل كان له فقط زوجتان ، وكان يذهب كل يوم جمعة الى الصلاة ببساطة ومن دون ان يعمد للعظمة كغيره من السلاطين .

ولقد حدثت لي حادثة من هذا القبيل عندما كنت احاول يوماً الذهاب الى البوسفور والتنزه فقد مررت بشارع مفروش بالرمل ، والفيت نفسي والعربة محتاطة بشرذمة من الحرس السلطاني وعلمت عندها ان السلطان يريد الصلاة في مسجد ذلك الحي ووقف الجندي قريباً منا حتى تراجعت العربة الى الوراء وطلبت اليه ان يعتذر الى جلالته عن جهلي . ومر في ذلك الحين السلطان فانحنى مسلماً باحترام وكم خجلت لكن هذه الحادثة عرفتني شخصياً الى اخلاق السلطان الديمقراطية .

* * *

وحوى دستور مدحت باشا الموضوع في سنة ١٨٧٦ مبادىء ممتازة واهم نقاطها ما يأتي :

١ ـ الموافقة على مميزات العرش .

٢ ـ تأليف حكومة دستورية من مجلس نيابي ينتخب من قبل جميع السكان على اختلاف النحل ووزارة مسؤولة امام المجلس عن اعمالها .

٣ ـ الغاء منصب الصدارة العظمى والاستعاضة عنه برئاسة الوزارة ورئيس الوزارة يحكم منصبه هو ايضاً مسؤول امام المجلس .

٤ ـ استبدال اسم الامبراطورية التركية بالامبراطورية العثمانية فيغدو عندئذ جميع السكان عثمانيين .

٥ ـ تنظيم الميزانية بحيث تشمل جميع نفقات القصر .

٦ ـ العمل بالقانون العادي في المحاكم عوضاً عن القانون الديني .

٧ ـ اشتراك العناصر المسلمة وغير المسلمة باستعمال المدارس الاميرية في الملحقات .

٨ ـ اللامركزية الادارية في الولايات .

٩ ـ الغاء الرقيق الابيض وتحظير المتاجرة به مع اطلاق حرية المستعبدين .

١٠ ـ مساواة جميع العناصر المنتسبة للجيش من حيث حق التقدم والترفيع .

وقد انتقد بعضهم الدستور بحجة انه يرمي الى (عثمنة) جميع العناصر التركية . اما اذا كان مدحت نفسه يرمي الى هذا الهدف فهذا لا نعرفه فهو قد شهد انحلال دولته وراى بام عينه الجيوش الروسية ترابط على ابواب العاصمة كما انه وقف على مطامع الدول الغربية في مؤتمرات سان ستيفانو وبرلين والاستانة فاعتقد بان الدستور هو اخر امل للدولة التركية فقام بوضعه مع الاحتفاظ بحقوق العرش . ولو قيض لدستوره ان يعيش اربعين او خمسين سنة لتطورت الحياة السياسية وانقلبت الى شكل ديمقراطي في بلاد تتمتع بالحياة البرلمانية وحرية الفكر والقول والكتابة .

وفي حكومات كهذه تسيطر الشخصيات السياسية عادة على كل شيء ، بصرف النظر عن النزعات الجنسية والمذهبية .

* * *

ودرس مدحت باشا دساتير فينا ولندن وباريس وبروكسل قبل ان يضع دستوره واحتك بدزرائيلي كثيراً متأثراً بافكاره وميوله .

فلو تجردت شعوب الشرق الادنى من التنازع الديني والعنصري لتقدمت كثيراً تحت دستور مدحت باشا المبني على العدالة المجردة عن الدين والقومية . .

وتتمركز الافكار في تركيا حول نقطة الدين فاذا سألت تركيا عن البلاد التي ينتمي اليها اجابك من دون تفكير (انا مسلم ، او ارثوذكسي ، او شيعي الخ) وهذا ما ادركه مدحت باشا فراح يعمل مع رفاقه بروح من التساهل الديني في سبيل الوحدة التركية .

واستفاق الشعور الوطني النائم في صدور الوطنيين الاتراك وغير الاتراك ايضاً وكانت حركة الاتحاديين الدعامة لاستقلال الولايات كما انها المناداة (بتركيا للاتراك) . واخيراً ابرمت معاهدة اوتشي او لوزان في ١٥ تشرين الاول سنة ١٩١٢ فخسرت تركيا ممتلكاتها في البحر الاحمر حتى الاوقيانوس الاتلانتيكي . وقد تنازلت تركيا . عن سيادتها في بقاع شمالي افريقيا محتفظة بحق تعيين الموظفين الدينيين للرعايا المسلمين .

اما تعدي ايطاليا على الاتراك في اعلان الحرب فلا مبرر له غير قوة القوي وضعف المستضعف .

واشتعلت الشورة في البانيا . وكنت منذ اول عهدي في تركيا اميل الى الفرق الارناؤوطية ذات الملابس الجميلة والتدريب العسكري المنظم . وكان الارناؤوط عنصراً كبيراً في الجيش التركي .

الفصل العاشر

انتقلت المدرسة الى بنايتها الجديدة في (اورته كوي) قبل ان تخوض أوروبا الحرب الكبرى بشهرين . وهكذا تحققت تصوراتنا وآمالنا التي رسمناها في مخيلاتنا منذ ثلاث سنوات ونصف عندما وضع الحجر الاول في بناء المدرسة الجديدة . وكان انتقالنا من اسكي داري جميلاً ومبهجاً اذ افترقنا الى عربات تنقل الامتعة من الشاطىء الاسيوي الى الشاطىء الأوروبي ، وهذه العربات تجرها الثيران نعم الثيران وقد زين اصحابها رؤوسهم بالزهر والورد .

ولكن جميع ما صرفناه من جهد ونفقات في نقل الامتعة ذهب ضياعاً لاننا وجدنا البنايات الجديدة مجهزة بامتعة اميركية تناسبها اكثر من التي حملناها معنا . واخيراً تم كل شيء وجلسنا نتناول طعام الغداء في غرفة الطعام الجديدة في ٢١ نيسان سنة ١٩١٤ .

واحتفلنا رسمياً بتدشين المدرسة الجديدة في ٣ حزيران ، وكنا قد اصبحنا على استعداد لاستقبال الزائرين في البنايات الاربع التي كان قد تم بناؤها ولم تكن عمدة المدرسة كثيرة العدد لكنها حوت الكفاءة والمقدرة فقد انتخبت الدكتورة (لويز ولاس) مديرة للكلية الجديدة . وسبع معلمات كن يحملن درجة (دكتور في الفلسفة) .

وهنالك متحف خاص لعرض مجموعة الآثار التي عنينا بجمعها في المدرسة القديمة .

* * *

وكان السفير الاميركي في ذلك الوقت لا يزال هنري مورغنتو الذي يتمتع بعطف الاتراك والاجانب ايضاً فقاد في حفلة التدشين الموظفين الاتراك وبقية المدعوين والخطباء وممثلي المدارس الى البهو الكبير .

وتكلم السفير الاميركي عن المدرسة الجديدة ، ثم القى كل من وزير المعارف ومحافظ المدينة خطاباً بالتركية . وتكلم الدكتور بمسبتون بالنيابة عن لجنة الامناء شاكراً جلالة السلطان محمد الخامس لعطفه على المدرسة وحمايتها وختم كلمته بان منحني درجة (دكتور في الادب) من كلية سمث الاميركية كما ان الحكومة التركية تلطفت وشرفتني بنيشان المعارف المرسل اليّ من جلالة السلطان .

* * *

وعقبت ذلك حفلة فريدة هي الاحتفال بتسليم المفاتيح القديمة الى المدرسة ، تلك المفاتيح التي استعملها اصحاب الاراضي القدماء وكانت عبارة عن مفاتيح ضخمة اكلها الصدأ لا تصلح لشيء . وقد زينوها بشعار المدرسة ووضعوها على مائدة انيقة .

وللحفلات العامة في تركيا صفة فريدة لانها تمثل عناصر مختلفة . فقد كان في حفلتنا هذه ممثلو السفارات والقناصل ، وتكلم الكثيرون ، وقال البعض ان اجمل خطاب فاهت به السيدة خالده

اديب بصغتها المتخرجة الاولى . وكانت في تلك الحفلة لا تجرؤ على الجلوس مع الرجال فبقيت في مجالس السيدات ولما دعيت للخطابة تقدمت الى المنبر وعلى وجهها نقاب شفاف .

وقد ذهبنا الى (الماز) للتفرج على فرق الطالبات اللواتي عنينا بحفلة شعوبية فتقدمت فرقة التركيات بالاعلام التركية اولاً ومن الجهة الثانية تقدمت فرقة الاميركيات وجاءت فرقة الانكليزيات وفرق الفرنسيات والالمانيات والبلغاريات واليهوديات واليونانيات .

وكانت كل فرقة ترقص وتغني بلغة قومها واخيراً اشترك الجميع بانشاد نشيد المدرسة بالانكليزية وانتهت حفلة التدشين بان دعي المدعوون الى المقصف الفاخر في قاعة المرمر .

* * *

اما وقد انتقلت المدرسة الى بنايتها الجديدة وجرت حفلة التدشين وتفرقت الطالبات عائدات الى بيوتهن طلباً للراحة والنزهة ابان العطلة المدرسية ، فلماذا لا ارتاح انا ايضاً ؟ فتركت البلاد على ظهر باخرة اقلتني الى (جنوه) حيث صرفت الاسابيع الاولى في جبال (بلان) .

وكانت الامور في العاصمة التركية لا تزال تجري مجراها الطبيعي في جو مشبع بالهدوء والسكينة .

ويعيش السلطان محمد الخامس حياة هدوء ايضاً في قصره (ضولمه باغجه) ساعياً جهده لحل المشاكل حسب امكانه .

ودستور مدحت باشا لا يزال قيد التنفيذ والبرلمان لا يزال يوالي

اجتماعاته وكانت منطقة شاموتيكس كعادتها في كل حين ملأى بالسياح الاجانب الذين جاؤوا لتمضية فصل الصيف متنقلين من قمة الى قمة .

وكنا نقرأ الحوادث في الصحف كل يوم وكنت اقرأ جرائدي عند تناول طعام الافطار فاحسست بقرب هبوب العاصفة لكن هذه الافكار كانت تغور في صدري وانا اتسلق الجبال برفقة صديقاتي الكثيرات .

وفي الصباح الذي قررت فيه فرنسا حشد جيشها واعلنت النفير العام صعدنا الى الجبل قبل قراءة الصحف ولم نعلم الا عند عودتنا خائري القوى فاستقبلنا اصحابنا الفرنسيون قائلين اسرعوا واركبوا القطار قبل ان يفوت الوقت فقد اعلنت الحرب . وكانت امتعتي في الفوضى التي تسود كل مصطاف ولحسن حظي كانت جميع دراهمي في خزانة الفندق لا في البنوك التي اقفلت ابوابها في وجوه الجميع وبعد ان دفعت لادارة الفندق ما عليّ من حساب اسرعت الى المحطة .

وكانت الشوارع تعج بالناس عجيجاً وقد اختفى الحمالون بسرعة غريبة فكان كل فرد يحمل امتعته على كتفه .

وكانت امتعتي اثقل من ان افكر بحملها ، وهذه اول اختباراتي بمخاوف الحرب ومع ذلك فقد اضطررت الى جمعها وحملها بنفسي وكنت اضيع حذاء هنا وجرابة هناك حتى بلغت المحطة والقطار على اهبة السفر الى جنوا ومع اني لم اجد مقاعد فارغة فقد جلست فوق الامتعة فرحةً بنجاتي .

الحلفاء الاربعة ضد تركيا وهم اليونان والجبل الاسود والصرب والبلغار . وبرزت شخصية فنزيلوس للمرة الاولى في السياسة العالمية

كموجد للحلف البلقاني الاول .

* * *

كانت القسطنطينية وسكة حديد بغداد والبلقان احد بواعث الحرب الكبرى ومسبباتها . اما السيطرة على بوغاز الدردنيل فقد كانت فكرة عالمية تسعى الى انفاذها كل دولة ذات شأن في العالم الغربي .

وقد خلقت التطورات الاقتصادية وسرعة الانتاج ميادين جديدة للتنازع الاستعماري والتزاحم لم يعرفها العالم الا في الخمسين سنة التي سبقت الحرب فكانت كل دولة تعمل جهدها على اعداد جيوشها لتتمكن من ابتلاع اكبر قطعة ممكنة وكان ذلك يوم كانت روسيا لا تزال امبراطورية والمانيا تزعم ان الجندية من الفنون الجميلة والنمسا تتمتع بقوة عالمية تحت اسم مملكة النمسا والمجر .

وفي الاسابيع الاولى من خريف ١٩١٤ كانت تركيا على عتبة ماضيها العسكري . لان من المعروف ان لكل امة نزعتها الخاصة ، ونزعة تركيا القديمة هي النزعة العسكرية المعروفة ولا تستطع امة ان تخلع الماضي بسهولة وسرعة . وقد كان على السلطان ووزرائه في كل دور من ادوار تركيا الخضوع لقوة الجيش ولو لم يلجأ مدحت باشا الى هذا العنصر لما تمكن من اعلان الدستور على الشكل الذي رويناه في ابتداء هذه المذكرات .

وهكذا اصبح انور باشا قائد الامة بصفته القائد الاعلى للجيوش التركية وكان انور رجلاً مقداماً جسوراً ذا كفاءة ونزعة المانية نظراً للدراسة العسكرية التي تلقاها في برلين فاثرت عليه .

وقد اخذ النفوذ الالماني يمتد ويقوى في العاصمة التركية الى ان

اصبحت السفارة الالمانية اقوى سفارة أوروبية في تركيا .

ولم يكن الحاكم الفرد قادراً على الحكم في تركيا والمانيا لان الحوادث برهنت على ان القيصر الالماني لم يكن باكثر من رئيس اسمي للدولة وان القوة بيد سواه

وفي تركيا كان كل واحد يعلم ان انور باشا هو الرئيس الحقيقي للبلاد وانه هو الذي جعل السلطان يستدعي احد المفتشين العسكريين من المانيا ليدرب الجيش التركي واسند بعد ذلك قيادة الجيش الاول في العاصمة الى الجنرال فون سندرس الالماني . وكأن ذلك العمل لم يرق لروسيا فاحتجت ولكن احتجاجها لم يثمر الثمرة المرجوة .

وقد بلغ من انور باشا وهو تحت تأثير نفوذ الالمان ان صرف قدماء الضباط من الجيش واستبدلهم بضباط من حزبه تلقوا دروسهم في برلين وعين ضباطاً المانيين في دوائر وزارة الحربية .

ويقولون أيضاً أن أنور باشا وزع في خلال ستة اشهر بقيمة مليون ونصف مليون جنيه هدايا على كبار الضباط والموظفين كل ذلك تعزيزاً لنفوذه .

والدليل على صحة ذلك انه عندما وقعت الهدنة وهرب انور وجدوا في دائرة وزارة الحرب صندوق مملوء بالحلى والجواهر والماس والنسخ المطعمة من القرآن الكريم وقد اتضح لهم انه كان يوزعها على شيوخ قبائل العرب ابتغاء لصداقتهم وحملهم على تأييده !

* * *

وكانت الدوائر التركية تعج بالضباط الالمان فاشيع بان ليمان

فون سندرس ارسل رسائل مختومة الى جميع حكام المدن والولايات لتفتح عند تلقيهم الاوامر بذلك وقيل بأن هذه الرسائل كانت تدعو الى اعلان النفير العام وكانت عبارة عن ورقة عادية موسومة بالطغراء السلطانية مرسومة على سيفين في وسط العلم التركي وقد عرفنا بامر هذه الرسائل ايام الحرب ولست ادري مبلغها من الصحة .

وفي امكاني الان ان اقص للقراء هذه القصة الطريفة لادل دلالة واضحة على عناية الالمان ببث الدعاية في تركيا ، فقد ارسلت مطبوعات عربية من برلين الى تركيا ذكر فيها ان مسلمي الالمان يبدون كل اخلاص وتعلق باخوانهم المسلمين في تركيا وقد تهكمت الصحف التركية على هذا الاخاء بين مسلمي الالمان ومسلمي تركيا وتساءلت اين هم هؤلاء المسلمون ايها الناس ؟ اخرجوهم من وراء الستار لنراهم ونقرع الحجة بالحجة !

ولما صدرت الاوامر باعلان النفير العام تبين للجميع ان الخزانة العامة كانت شبه فارغة وانه لم يعد في استطاعتها الانفاق على ملابس الجنود بصرف النظر عن نفقات الدولة اثناء الحرب .

وكانت مدرستنا في الوقت نفسه تجتاز صعوبات عدة فقد ازداد عدد الطالبات ولم يكن من المستطاع حمل المعلمات الاميركيات على ترك اميركا في مثل تلك الظروف فاضطررنا للالتجاء الى الجاليات الأوروبية وبدأنا نشعر بقلة المؤونة وصعوبة الحصول على الحاجيات الضرورية .

وشعرنا بتبدل المحيط عقب اعلان النفير العام واقتراب فصل الشتاء والبرد لان الحكومة اخذت تسكن الجنود في جميع منازل (اسكي داري) بما فيها مدرستنا الماضية فامتلأت منازل (ارنكوي)

بـالجنود حتى بتنـا نخشى ان تعمد الحكـومة الى استعمـال بنايتنـا التي لم تنجز بعد لاسكان جنودها فيها .

وذات يـوم جاءت فـرقة من الخيـالة ، علمنـا بانها تـريد احتـلال اسـطبلاتنـا التي كان يستعملهـا المالـك . ولما اقتـربت منها اشـار قـائـد الفـرقة بيـده الى الغرف التي يـريـد ان يستعملهـا في المـدرسـة كمكتب للفـرقة المرابطة فـاسرعنـا الى الهاتف نستنجـد السفير الاميـركي الـذي استحصل فوراً عـلى اوامر بـاعادة فـرقة الخيـالة واسـرعنا نحن الى نـزع سطوح الاسطبلات وتخريبها بناء على ايعاز من السفير .

ومـع اننا كنـا نريـد ان نسـاعـد الـدولـة التي حمتنـا اثنـاء نكبتهـا وحاجتها ومنحناها حق استعمـال ابنية المـدرسة القـديمة فقـد كنا نعتقـد ان المحافظة على المدرسة الجديـدة كمعهد للثقـافة افيـد بالنتيجـة للامـة التركية فاسرعنا للدفاع عنها .

القسم الثالث

الفصل الحادي عشر

اصبح دخول تركيا في الحرب امراً مفروغاً منه غير ان الناس كانوا يتساءلون عن الفريق الذي ستنحاز اليه الدولة وكانت اكثرية الشعب الساحقة تميل الى انكلترا وفرنسا حتى اثناء ضرب الدردنيل بالقنابل ! ولم يكره العثمانيون الانكليز الا بعد دخول هؤلاء كفاتحين للاستانة ومعاملتهم العثمانيين معاملة المغلوبين على امرهم .

وفي الشهر الاول من الحرب التجأت الدارعة (غوين) والنسافة (برسلو) الالمانيتان الى بوغاز الدردنيل هرباً من الاسطول الانكليزي المسيطر على البحر المتوسط . وكانتا قد رفعتا الاعلام التركية وتظاهرتا باطاعة اوامر وزارة الحربية العثمانية فاستطاعتا خدعة الاميرال تروبردج قائد الاسطول الانكليزي والالتجاء الى مياه الدردنيل حيث

كانتا خطراً على الحياد التركي .

* * *

ومما ساعد على تقوية الخلاف الانكليزي العثماني وضع الاميرالية البحرية الانكليزية يدها على المدرعتين العثمانيتين ، فان تركيا عمدت الى جمع التبرعات من الاهلين رغبة منها بتقوية بحريتها واسرعت النساء الى بيع الحلى والمجوهرات وتبرع الكثيرون بالمبالغ الطائلة حتى استطاعت تركيا طلب بناء المدرعتين في موانىء الانكليز .

وفي انكلترا يسمحون للموانىء الخاصة ببناء البواخر الحربية للدول الاجنبية ايام السلم على ان تسلم للدولة اثناء السلم ايضاً ، اما اذا اشتركت انكلترا بالحرب والبواخر لا تزال في مياهها فللحكومة البريطانية الحق بالاستيلاء عليها .

وعملاً بهذه المادة ضمت القيادة البحرية الانكليزية الباخرتين الحربيتين (السلطان عثمان الاول والرشادية) الى الاسطول الانكليزي تحت اسمي : اجنكورب وايرن .

وكانت الحكومة الانكليزية تريد ان تظل تركيا على الحياد او انها على الاقل تتأخر بالاشتراك في الحرب ، حتى يستطيع اللورد كيتشنر ارسال القطعات الهندية الى أوروبابطريق قنال السويس وكان على السر البرت ماله سفير انكلترا في تركيا ان يشرح كيفية استيلاء دولته على الباخرتين التركيتين في الوقت الذي كانت فيه قطعتا (غوين ، وبرسلو) تتأهبان لمديد المعونة الى الحكومة التركية عند اول فرصة ممكنة .

وكانت انكلترا وروسيا وفرنسا تفاوض تركيا للبقاء على الحياد

على ان لا تمس حدودها في نهاية الحرب ، على ان تطرد تركيا الطرادين الالمانيين او تضع يدها عليهما . فلم تطرد تركيا الطرادين لالمانيين من مياهها لانها ابتاعتهما مع بحريتهما من المانيا ، وهكذا بقيا في الدردنيل حتى دخلا البحر الاسود بناء على ايعاز من انور باشا وهاجما ـ حاملين العلم التركي ـ البواخر الروسية واطلقا القنابل على موانىء اوديسا وتيودوسيا وسباستبول .

وقد كان لحادثة البحر الاسود تأثير كبير في الاندية التركية فان الدسيسة قد حاكتها يد المانية تحت رعاية واشراف انور الذي لم ير طريقة تجبر دولته على خوض غمار الحرب احسن من ذلك وسمي الاميرال سوشون قائد الطرادين الالمانيين قائداً عاماً لقوى تركيا البحرية واطلقت الحكومة اسمي جاووس وميدلي على الغوين والبرسلو وكان انصار الدخول في الحرب من الاتراك يعتقدون ان المانيا هي الدولة الغربية الوحيدة التي تريد تعزيز جانب الاتراك .

ويعتقد بعض نقاد الاتراك ان طلعت وانور وخليل بك هم منظمو حركة البحر الاسود دون علم بقية اعضاء الوزارة وقيل ان الاخبار بلغت مسامع جمال باشا وزير الحربية وهو يلعب البوكر في احدى نوادي (البيرا) فصرخ :

ـ اذا كان ذلك حقيقاً فالاميرال سوشون هو اول من يعلق على المشنقة !!

وعندما تأكدت حوادث البحر الاسود ارسلت الحكومة وفداً قابل سفراء الحلفاء وطلب اليهم البقاء في العاصمة وعدم قطع الصلات السياسية على ان تعتذر تركيا لروسيا وتدفع التعويضات الضرورية فاجاب السفراء بان بقاءهم في تركيا يتوقف على طرد تركيا لجميع

الموظفين الالمانيين من خدمتها فعاد الوفد وطلب توسط الولايات المتحدة وايطاليا بالقضية بصفتهما المحايدة على ان يبقى سفراء الحلفاء في تركيا غير ان السفراء رفضوا الاقتراح وتركوا العاصمة . وعقب ذلك استقال اربعة وزراء هم جاويد بك ومحمود باشا والوزيران الارمني واليوناني .

اما رئيس الوزارة فبالرغم من تصريحه ان الحرب عبارة عن جنون وجناية فقد بقي في كرسي الرئاسة ولم يقدم استقالته .

وكانت قوى السلطان في ذلك الوقت تنحط رويداً رويداً وكان ولي العهد يوسف عز الدين اكبر انجال السلطان عبد العزيز يميل الى الحلفاء ويعارض السياسة الالمانية وقد اجتمع الى سفيري انكلترا وفرنسا قبل مبارحتهما البلاد واعرب عن اسفه الشديد وحملهما تحياته الى رئيس دولتيهما .

وفي ربيع عام ١٩١٦ وجد ولي العهد ميتاً في مزرعته في اعالي « ارنوتكي » ولم يعلم السبب في وفاته وهناك من يقول بانه ذهب ضحية الحرب . . .

* * *

واعلنت روسيا الحرب على الباب العالي في ٣ تشرين الثاني وبعد الحرب بيومين جاء دور فرنسا وانكلترا فاعلنتا الحرب رسمياً واعلنت تركيا الحرب على الحلفاء في ٢٣ تشرين الثاني . وكانت الاستعدادات الحربية قد بدأت . وضمت انكلترا نهائياً مصر وقبرص الى املاكها .

ووضعت الصحف تحت رقابة شديدة وحجبنا عن اخبار العالم

ولم نعد نعرف ما يجري في العالم الغربي اذ ان صلتنا به قد انقطعت تماما .

وكان اول ما سمعناه من هجوم الحلفاء على استنبول دوي القنابل التي حطمت زجاج مدرستنا .

وسمعنا في صباح يوم احد صوت المدافع يدوي في نواحي البحر الاسود وبعد بضعة ايام بينما كانت طالبات الصف العلمي يتمرن على تمثيل رواية في ظلال اشجار الحديقة اخذت اصوات المدافع تصم الآذان وكانت طائرات الروس تمر من فوقنا دائماً .

وصدرت الاوامر اخيراً بمنع الاضاءة اثناء الليل فخشينا ان تحسبنا طيارات الحلفاء مؤسسة تركية ولذلك عمدنا الى رفع علم اميركي تبلغ مساحته ٤٨ قدماً نشرناه على ارض الحديقة حتى تتبين الطائرات المدرسة وتعرف تابعيتها الاميركية . وكان الروس يتقدمون بسرعة في القفقاس ثم توقفوا فجأة فقيل ان لتأثير الالمان في الدوائر الروسية علاقة بذلك .

وكانت طائرات الالمان تملأ فضاء العاصمة التركية ضجيجاً ، وفي صبيحة يوم شاهدت طائرة المانية تحاذي سطوح المدرسة تختال في طيرانها . وبعد ايام علمت بانها سقطت في احدى معارك سالونيك .

واستغرب الناس الشائعة التي راجت عن عزم الانكليز على مهاجمة الدردنيل ولم يلبث ان وقع الهجوم الاول على قلاع المضايق واصاب نجاحاً يذكر فتسرب الخوف الى القلوب واشاع بعضهم بان الحلفاء عازمون على احتلال المدينة وان السلطان سيترك العاصمة الى قونية وان الحكومة بدأت ترسل محتويات التحف الى قونية وان نساء القصر يتأهبن للسفر اليها ايضاً .

ولم نكن قد اعتدنا بعد على اخبار الحرب فنالنا جزء من الاضطراب الفكري وعلى اثر ذلك وضعت السفارة الاميركية لائحة باسماء الاميركيين في العاصمة وعينت لكل منهم مأوى يلجأ اليه في حالة الاحتلال .

وكانت الجيوش الانكليزية تخوض معارك الدردنيل على بعد مئة ميل من العاصمة التركية فلم يكن ميسوراً سماع اصوات المدافع في الاستانة . وكانت روسيا عبارة عن (الغول) في نظر الاتراك ! وللماضي تأثير كبير جعل الاتراك يعتقدون ان روسيا تفكر دائماً بالقسطنطينية وهي تعمل على احتلالها .

وفي هذه الايام سمعنا للمرة الاولى ان فرنسا وانكلترا تنازلتا عن القسطنطينية لروسيا فحسبنا ان انكلترا تمهد السبيل للحلم الروسي الذي حاربته اجيالاً . لكننا عندما اقتربت الجيوش الانكليزية من الدردنيل اخذنا نعتقد بان الحكومة البريطانية اعقل من ان تمنح العاصمة التركية لروسيا.

وارادت روسيا ان تستفيد من تحرج الموقف فارسلت تطلب الى دول الحلفاء تقرير مصير القسطنطينية بعد النصر الاخير فلم يعد بوسع الحلفاء المراوغة تجاه هذا الطلب الصريح وشهد شهر نيسان عام ١٩١٥ توقيع معاهدة سريه جديدة وقعتها دول الحلفاء باعطاء العاصمة التركية الى روسيا بعد احراز النصر الاخير .

* * *

اما لماذا تنازلت فرنسا وانكلترا عن القسطنطينية فيعود السبب فيه ذلك الى رغبتهما بالحصول على مساعدة روسيا طوال مدة الحرب

فتعينهما على الخلاص من نفوذ الالمان في تركيا ، هذا النفوذ الذي تجلى في سكة حديد بغداد ـ برلين التي هددت مصالح الانكليز في مصر والهند ومصالح الافرنسيين في سوريا .

وقبل الاحتفال المدرسي السنوي في حزيران عام ١٩١٤ سمعنا بان بلغاريا ستخوض غمار الحرب لكننا لم نعلم الجهة التي ستنحاز اليها . وصدرت الاوامر بارسال جميع الطالبات البلغاريات الى بلادهن فاضطررنا ان نمنح الشهادات الى المنتهيات منهن قبل حزيران فدعاهن السفير الاميركي الى الغداء على مائدته حيث وزع عليهن الشهادات وسافرن جميعهن الى بلغاريا .

ودهشنا عندما علمنا ان بلغاريا اعلنت الحرب ضد الحلفاء . ووزعت وزارة (راد يسلفوف) البلغارية بياناً مسهباً فندت فيه مطامع الحلفاء واغراضهم الاستعمارية من الحرب وحملت عليها حملة شديدة . وجاء في البيان ان روسيا تفكر بالعاصمة التركية وفرنسا بالالزاس واللورين وانكلترا ترمي الى قتل التجارة الالمانية . اما الصرب والجبل الاسود فدخولهما الحرب للسلب والنهب فقط . وتساءلت الحكومة في بيانها عن مصير التجارة البلغارية اذا احتلت انكلترا الاسواق التركية . وهكذا تكون بلغاريا قد خاضت الحرب الكبرى الى جانب المانيا مع ان شعور الشعب البلغاري كان الى جانب الحلفاء .

وبالرغم من اخبار الحرب المزعجة التي كانت تصلنا بصورة مستمرة عن الساحات البعيدة فان اكثر المشاهد التي ازعجتنا كانت آتية عن حوادث التجنيد في العاصمة ويرافق التجنيد في القسطنطينية دوي الطبل طوال ساعات الليل يدعو المؤمنين الى الجهاد غير ان

هؤلاء لم يروا في الجهاد ما يبرر الاقدام على الموت فكانوا يهربون ويتوارون زرافات ووحدانا .

وكم كنت احزن في الصباح عندما يقع بصري على بعض المساكين الذين وقعوا في شباك المجندين يسيرون في الشوارع الى مراكز التجنيد بوجوه صفراء وفرائص مرتعدة .

وامتلأت الشواطىء بالمستشفيات الجديدة ، وكانت العاصمة تحتوي على ما يقارب ٨٠٠ الف جريح ولذلك اسرعت ومن معي من المعلمات الى التطوع في عداد الممرضات وهكذا تطوعت مسز (مورجنتو) زوجة السفير الاميركي ، ولن ننسى ابداً منظر ذلك الضابط التركي الجميل وهو يتعذب على فراش الموت متألماً من جراحه وقد قال وهو يلفظ انفاسه الاخيرة :

« لقد غفرت الى جميع اعدائي » .

وقد اقبلت كثير ن النساء الاميركيات والانكليزيات على التطوع في المستشفيات والعمل كممرضات وشهدن جميعهن ان للجندي التركي الجريح مقدرة فائقة الحد والتصور على احتمال الآلام والاوجاع .

ولم يكن هناك شيء يستفز حميته كالتدخين والتمتع برؤية الازهار . ولا غرو فقد اشتهر الفلاح التركي بتعلقه بذلك حتى انه لا يرى في الشوارع الا مزيناً نفسه بها .

وكان يحدث احياناً ان يترك احد الزائرين ضمة من الازهار على طاولة في المستشفى فلا تمر عليها بضع دقائق الا وتراها قد اصبحت مشدودة الى سرير احد الجرحى او موضوعة بقربه .

وكانت النشرات الرسمية عن المعارك في الدردنيل لا تذكر حقيقة الخسائر فتكتفي بالقول ان عدد القتلى والجرحى ضئيل جداً خوفاً من هياج الشعب اذا علم بالواقع ولكن ذاك لم يمنع تسرب الحقيقة الى الاهالي .

ومما يجدر ذكره في هذا المقام قصة فكاهية تناقلتها الالسن على اثر صدور الاذاعات الرسمية عن الحرب وهي ان جندياً تركياً بعد ان صعد الى السماء قرع باب الجنة وطلب ان يسمح له بدخولها فسأله الحاجب :

- ما اسمك يا صديقي ؟ فاجابه :

- اسمي احمد وقد قتلت في موقعة الدردنيل !

فضحك الحاجب واجابه :

- هذا مستحيل يا بني فان السجلات الرسمية التركية لا تذكر اسمك مع القتلى بل تقول انه لم تقع خسائر في الارواح قط سوى ان حماراً وجملاً اصيبا بجراح بسيطة !..

وفي اثناء حرب الدردنيل كانت اخبار الغواصات في بحر مرمره تسبب هرجاً عظيماً في الاستانة فقد كانت الغواصات البريطانية تتجول دائماً خارج المرفأ وكانت تتجرأ احياناً على التوغل في البسفور نفسه مما جعل كل بواخر البسفور تحمل معها واقيات واطواقاً من الفلين حذراً من الغرق الفجائي باحد الالغام او بالطوربيد .

وشاع ايضاً ان جنود الغواصات كانوا ينزلون الى جزيرة برنكيبو وغيرها من جزر بحر مرمره طلباً للطعام .

وفي غضون تلك الاشهر كنا نشعر بالم وحسرة عندما نرى ميناء

الاستانة الجميلة خالية من المراكب والبواخر . وانني اشك اذا كان قد مر عليها زمن عصيب مثل ذاك منذ فجر تاريخ بيزنطيه العريق .

وتوجد في ضاحية بيرا في الجهة الشمالية من القرن الذهبي تماماً معامل للذخيرة والبارود ، وقد حاول الانكليز مراراً عديدة ان يدمروها فلم يفلحوا فحدث في شهر نيسان سنة ١٩١٦ ان سئمت نفسي الحياة في المدرسة حيث تكثر الضجة عن الحرب فعمدت الى القيام بنزهة الى تلك الناحية .

وبينما انا واقفة مع الدكتور واليس على شرفة الطابق الرابع من فندق (بيرا بالاس) اذا بي اسمع سلسلة طويلة من الانفجارات عقبها دوي عظيم خلت ان السماء قد انطبقت على الارض فاسرعنا بالنزول نستقصي عن السبب فعلمنا ان سرباً من الطيارات الانكليزية قد هاجم معمل البارود والقى عليها وابلاً من القنابل حتى اشتعل البارود وانفجر فدمرها ولم يبق منها حجراً على حجر ففضلت عندئذ العودة الى المدرسة التي اصبحت في نظري اكثر امناً من تلك الناحية التي قصدتها حباً بالهدوء والراحة من العناء فوجدت فيها الخطر والموت .

وقد وقع حادث آخر افظع واشد هولاً من السابق فان الالمان اختزنوا في محطة سكة حديد بغداد في حيدر باشا كميات كبيرة من الذخائر وعربات النقل والطعام والطيارات والسيارات استعداداً لشحنها الى فلسطين حيث يستعان بها على جيش الجنرال اللنبي .

وفجأة شعرت الاستانة في ٦ ايلول ١٩١٧ برجة هائلة نتجت عن انفجار مريع في حيدر باشا وقد كان تأثير الانفجار عظيما لدرجة ان نوافذ البنايات المجاورة قد تحطمت وشعرنا به ونحن بعيدون عنه

مسافة ٦ كيلومترات واستمرت الانفجارات عدة ايام في ساعات متقطعة الى ان اصبحت محطة حيدر باشا انقاضاً متهدمة .

وقد كثرت الاشاعات عن اسباب الانفجار وزاد المسألة غموضاً ان السجلات الانكليزية لم تذكر شيئاً عنه .

وكان الالمان يقولون ان الانفجار وقع قضاء وقدراً ولكنه توارد لي من مصدر يوثق به ان ادارة الاستعلامات السرية الانكليزية عرفت بتلك الذخائر ورأت ان وصولها سالمة الى فلسطين يسبب اضراراً جسيمة للورد اللنبي فارسلت فريقاً من رجالها الى الاستانة حيث تولوا نسف المخازن والمستودعات مضحين في حياتهم لاجل ذلك .

* * *

وقد كان ذلك العتاد الحربي مؤمناً عند ست شركات المانية بقيمة ١٨ مليون فرنك .

لا يجوز لي ان اهمل ذكر افظع حادث وقع في تركيا اثناء الحرب الكبرى وهو ابعاد الارمن ونفيهم باساليب قاسية ورغماً عن ان العالم كان عندئذ منغمساً في حمام من الدم فانه لم يستنكف عن اظهار اشمئزازه من ذلك الحادث الذي سود وجه الانسانية ويشاع ان المانيا هي التي قدمت الى تركيا ذلك الاقتراح الفظيع فنفذته تركيا . .

ولكنني اشك في صحة ذلك الحادث لان الالمانيين الساكنين في قونيه وقعوا عرائض الاحتجاج ورفعوها الى العاهل الالماني غليوم طالبين منه التدخل لمنع تلك المذابح ولكنه لم يفعل شيئاً .

وقد خطب احد النواب البارزين في مجلس المبعوثان على اثر عودته من آسيا الصغرى فقال :

ـ « انا لا استطيع السكوت عن تلك الاعمال الهمجية التي شاهدتها في طريقي الى الاستانة وانني اطلب ان تقوم الوزراة بعمل سريع لايقافها » .

وقابلت خالده اديب طلعت باشا وتضرعت اليه ان يأمر بايقاف تلك الفظائع ولكنه لم يكترث لذلك ولا ريب ان المسؤولية تقع على رؤوس انور وطلعت ويجوز لنا ان نستثني جمال باشا لانه حصر فظائعه في الجزء الجنوبي من الامبراطورية . اما السلطان فقد كان يجهل كل شيء يجري فلا يجوز لنا والحالة هذه ان نلقي التبعة على عاتقه .

وقد عقد اجتماع في لندره في شهر تشرين الاول سنة ١٩١٥ فخطب فيه اللورد برايس قائلاً :

هناك قوة واحدة في العالم تستطيع ان توقف مذابح الارمن . هي المانيا ، بيد ان المانيا لم تحرك ساكناً وكان جوابها الوحيد على الاحتجاجات العديدة التي قدمت الى سفارتها في الاستانة : لا نستطيع التدخل لاسباب سياسية !

اما من جهة كليتنا فقد تأثرت من الحرب من الوجهة الغذائية اكثر من غيرها اذ قد اختفت اكثر الحاجيات والفواكه من الاسواق لدرجة اننا كنا ندفع ثمن البرتقالة الواحدة ليرة تركية (وكانت تعادل قيمتها اربع دولارات ونصف) .

وفي اواخر ايام الحرب وصلنا الى درجة الجوع ، فقد السكر تماماً من البلاد واصبح من المستحيل الحصول على الخضروات والحبوب الجيدة اللازمة للغذاء .

وقد كانت الاحوال اشد سوءاً في المدينة حيث كنا نرى في

منعطفات الطرق مناظر تثير الرحمة والشفقة وكنا نـرى الكهول والعجـائز والاطفـال يقعون عـلى الارض من الجوع ويصـرخـون بـاصـوات تفتت الاكباد .

ورغـماً عن تلك الاحوال السيئـة فلم يكن احـد يفكـر في التمـرد والثـورة عـلى رجـال الحكم وهـذا هـو اعجب شيء رأيتـه ، فقـد كـان الاتـراك يحتملون ذلـك بصبـر عجيب بـاعتبـار انـه قضـاء من الله يجب قبوله بدون تذمر !

وكان انور باشا يحـاول دائماً ان يجتـذب انظار النـاس من الناحيـة الحيوية الى الناحية الوطنية فقد خطب مـرة في جمع من السيـدات بمدينـة ادرنـه وقال : انـه لمن الفخـر والسـرور لـلام ان يمـوت ابنهـا في سبيـل وطنه .

ولما انهى من كـلامـه نهضت احـدى السيـدات وانحنت امـامـه باحترام وقالت :

نحن نشكـر معاليكم عن كلمتكم اللطيفـة ونتمنى ان تشعر امكم ايضاً بالفخر !

وفي اثنـاء هذه البـرهة العصيبـة من الحرب تـوفي السلطان محمـد الخـامس وهو السلطان الـوحيد من السـلاطين الخمسـة السابقـين الذي مات موتاً عاديا في منصبه ، ولقد كان محمد رشاد ديموقراطيـاً يريـد الخير والاصلاح لشعبه ولكنه كان مقيداً فلم يستطع ان يفعل شيئاً .

وقبل وفاته بمدة قليلة اجرى له احـد الجراحـين الالمان عمليـة في جسمه وقبل ان يتنشق البنج قال :

« انـا لا يهمني ان اموت اذ انني في حـالتي الحـاضـرة لا استـطيـع

افادة بلادي بخدمة ما ! » .

وكان ابنه البكر واقفاً فوق رأسه فسأله :

ـ هل لك يا ابت الشجاعة لان تتحمل العملية ؟

فكان جواب السلطان له بضعة ابيات من الشعر الفارسي مغزاها ان الحصان الاصيل الهرم يستطيع ان يتحمل اكثر من المهر الوضيع النسب !

وقد عاش بعد العملية عدة اشهر ثم توفي في اوائل سنة ١٩١٨ فخلفه في ٣ تموز من العام نفسه اخوه محمد وحيد الدين ، ولقد كان هذا الاخير وطنياً متحمساً ولكن عمره كان يربو على الستين .

وكان في ابتداء حكمه يجول في الشوارع متنكراً ليرى بعينيه حقيقة احوال الشعب ولكنه عاد فانزوى في قصره (ضومله بغجه) .

وحدث بعد تسلمه العرش بمدة وجيزة ان دخلت ابنته الاميرة (الفي) الى مدرستنا وكانت تخبرنا دائماً كيف ان اباها يبذل كل ما وسعه لتوفير سبل العيش لبلاده وانني اعتقد ان هذا السلطان كان صافي النية !. عازماً على القيام بالاصلاح لولا ان الظروف اعترضته ووضعت في طريقه العقبات .

لقد دخلت تركيا الحرب العامة وهي في حالة لا تستطيع معها ان تقوم بهجمات حربية او ان تغذي جيشاً تام العدد ورغماً عن ذلك فان جنودها قد اظهروا في جميع المواقع شجاعة تذكرنا بشجاعة اجدادهم القدماء وتجعلنا نعتقد ان الشجاعة في العنصر التركي متأصلة منذ اقدم العصور .

الفصل الثاني عشر

رغما عن ان النفوذ الالماني كان يتزايد في تركيا فان الاتراك لعبوا دوراً هاماً على مسرح الحرب الكبرى واعلنوا الجهاد والحرب المقدسة ليستثيروا حماس الشعب التركي والعالم الاسلامي ، ولا نعلم من كان الدافع الحقيقي لذلك ، وسواء كان الامبراطور الالماني ام انور باشا فانا اؤكد كل التأكيد ان شيخ الاسلام هو الذي اعلن هذا الجهاد .

اما الطريقة التي اعلن بها فانها كانت غريبة الشكل لم يخطر على بال احد فقد قامت على ظهور الخيل بطريق القرن الذهبي . وكانت تتقدم المظاهرة امرأتان تمثل احداهما سيدة محترمة والاخرى وصيفتها ولا ريب انهما قد قبضتا مبلغاً من المال حتى قبلتا القيام بمثل ذلك الدور . . وقد عرفت انهما من البائعات اللواتي يتجمهرن في الاسواق .

وكان الامبراطور يعتقد ان اعلان الجهاد سيكون قبساً يشعل العالم الاسلامي باجمعه في تركيا والهند ومصر وبلاد العرب فينهض ويمحق الانكليز عن وجه الارض ويبيدهم .

* * *

ويبقى النفوذ الالماني متسلطاً على تركيا منذ بدء الحرب حتى يوم اعلان الهدنة سنة ١٩١٨ رغماً عن ان الالمان لم يكونوا يتظاهرون بذلك .

واذكر ان شقيق احدى الطالبات الاميركيات كان ينوي السفر من قونيه الى الاستانة فلم يستطع دخول العاصمة الا بعد موافقة السفارة الالمانية رغماً عن ان جوازه كان موقعاً من قبل الموظفين المسؤولين الاتراك ! وهذا المثل كاف لان يدلك على ان الالمان كانوا يقصدون احتلال تركيا بعد الحرب .

ومما اذكره ايضاً انني تناولت يوماً من الايام طعام العشاء في احد فنادق (بيرا) ثم جلست استريح على مقعد واسع فرأيت تحته كتيباً صغيراً ملوثاً بالاوساخ مما يدل على انه سقط سهواً من صاحبه فالتقطته واخذت اقلب صفحاته فاذا به تقريراً وضعته احدى غرف التجارة الالمانية عن المناطق المختلفة في اسيا الصغرى وعن درجة خصوبة اراضيها .

وقد استنتجت من لغته الطليه ، وتفصيلاته الوافية انه مكتوب بقلم اختصاصي خبير بالشؤون الزراعية فيتضح لنا من ذلك ان الالمان كانوا يهتمون بكل شاردة في تركيا ظناً منهم انها ستصبح مستعمرة لهم بعد انقضاء الحرب .

ولا يجوز لنا ان نلومهم على ذلك الاعتقاد لان النفوذ الالماني الذي بدأ يتزايد منذ الشروع في مد الخط الحديدي الى بغداد وصل في ابان الحرب العظمى الى درجة جعلت المانيا تسيطر على مقدرات تركيا ، فكنا نرى دائماً مئات الجنود والضباط يمرحون في الشوارع .

ولما اغلقت انكلترا وايطاليا وفرنسا سفاراتها في الاستانة منحت

الدولة العثمانية السفارة الالمانية حق المناظرة على جميع الرعايا الاجانب وقد بقيت سفارتان مفتوحتان فقط هما : السفارة الاميركية والسفارة الفارسية فضلاً عن بضع قنصليات صغيرة كانت تمثل الدول الواقفة على الحياد ومنها المفوضية الاسوجية التي تولت مسؤولية الاشراف على شؤون الرعايا الاميركيين عندما قطعت العلائق السياسية بين تركيا والولايات المتحدة فيما بعد .

ولا يسعني ان اجحد فضل المستر كولوتشوف الوزير البلغاري المفوض في تركيا فانه كان دائماً اول المسرعين الى مساعدتنا في المدرسة عند حدوث ادنى صعوبة رغماً ان دولته كانت تخوض الحرب ضدنا .

وكان استمرار المعارك الدامية في الدردنيل وكثرة وقوع الجرحى سبباً في ازدياد عدد المستشفيات الالمانية والنمسوية المجهزة بكل الوسائل المريحة تحت مناظرة اطباء ماهرين وممرضات متعلمات .

وقد نتجت عن وجودهم تحسينات جمة في الاحوال الصحية فاصبحت الشوارع نظيفة لامعة وصدرت الاوامر باجبار الاهلين على التلقيح ضد جميع الامراض .

ورغماً عن تلك الاحتياطات العديدة فان حمى التيفوس التي كانت تفتك بالجنود في الجبهة تسربت الى بعض احياء المدينة كما ان عدة اصابات بالكوليرا وقعت في تلك الاثناء .

* * *

ومما لا ريب فيه ان المانيا كانت تتبوأ بين الدول مركزاً عالياً في الامور الثقافية وقد ظهرت تلك الحالة الحسنة باجلى مظاهرها في المدة التي بسطت بها المانيا سلطتها على تركيا .

كـان مساعـد وزير المعـارف المانيـاً يدعى (الهـر شمدت) وكـان طويل القامة اشقر اللون يقطن منـزلاً فخماً يقـع على مـدخل شـارعنا . وكـان اول عمل قـام به ان زار مـدرستنا وتعـرف فيهـا الى كـل شـاردة وواردة ممـا جعل افئـدتنا تـرتجف خوفـاً من ان يكون وراء زيـارته شيء يقصد منه اغلاق المدرسة .

ولكن ظنوننا تبددت بعد قليل اذ تأكدنا ان جميع تصرفـاته كـانت تصـدر عن عـواطف قلبيـة صـادقـة وانـه لم يكن يـرغب في استعمـال السلطة المعطاة له والتي تخوله اقفال اي معهد شاء

وقـد بـدل الهـر شمـدت كـل مـا في وسعـه لادخـال التحسينـات والـطرق المستعملة في المانيـا فكان يـطلب منا دائـماً ان نـوافيـه بتقـاريـر مفصلة عن كل بنت .

* * *

وبعد بضعة أيام استرحنا من التقارير [illegible] نا الـوزارة اي احصـاء ما ولمـا سألت الـدكتور تـوفيق المـدرس [illegible] اشار عليَّ ان انتظر قليلاً وفعلاً فاننا استلمنا بعـد اسبوع [illegible] مجلدات مخـططة خاصـة لكي نكتب عليها التقـارير عن كـل تلميـده فعـدت الى الاستاذ وسألته عن فائدتها لانها مطبوعة باللغة التركية فابتسم وقال :

- هل توجد عندك خزانة فارغة ؟

فقلت نعم واريته خزانة فخمة جـداً . فما كـان منه الا ان تنـاول تلك المجلدات وصفـهـا بانتـظام على الـرف الاول فيها واخبـرني ان لا لزوم لان ازعج نفسي بوضعي شيء آخر فيها !

ثم عرفت بعدئذ ان الدكتور توفيق كان صديقاً حميماً لوزير المعارف وكان يقول له في كل زيارة :

ـ اننا في الجامعة نتبع ارشاداتكم بالحرف الواحد وننفذ كل مطاليبكم على الوجه الذي ارتأيتموه .

وكان الوزير يثق بكلام الدكتور ولا يسمح لموظفيه بتفتيش السجلات لان التركي بالحقيقة لا يهتم كثيراً بالتقارير والاحصاءات من اي نوع كانت .

ولما انتهى العام صرح الوزير ان جامعتنا صارت حسب ارشادات معاليه احسن من اي مدرسة اجنبية في البلاد مع انه لو اتى وبحث لرأى اننا لم نفعل شيئاً !

* * *

وكانت الجامعة السلطانية التركية اثناء ذلك مسرحاً للغرائب فلم يكن يسمح بقبول النساء الا في اصعب الفروع واشدها غموضاً وهو فرغ الفلسفة . وكان عدد النساء فيه عظيماً جداً يفوق عدد الرجال لان اكثر هؤلاء قد سيقوا الى جبهة الحرب .

وفي وسط هذه الفوضى التعليمية مدت المانيا يد المساعدة الى الجامعة فارسلت اليها عشرين استاذاً المانياً للتدريس فيها . والغريب انهم جاؤوا بجميعهم مع عائلاتهم كأنهم كانوا ينتظرون ان يستوطنوا تركيا الى الابد .

واخذت الصحف الالمانية تنشيء المقالات الطويلة عن تشييد الصرح التعليمي في تركيا على النسق الالماني وتتفاءل بان تركيا ستصبح

المانية بثقافتها كما اصبحت بجيشها وميول وزرائها .

وكـان على اولئـك الاساتـذة ان يـدرسـوا علوم الحيـوان والنبـات والانسـان والمعـادن وطبقـات الارض والتـاريـخ والجغـرافيـا والكيميـاء والقوانين والفلسفة والفيزياء واللغات السامية الخ . .

ومن البـديهي انهم كانـوا جميعهم يجهلون اللغـة التـركيـة ولكنهم بذلوا مجهوداً عظيما في درسها . ورغماً عن ذلك فان لفظهم كـان مشوهـاً لدرجة انـه كان كـافياً لان يضحـك كل من يسمعـه . فلم يروا عنـدئذ بدأ من الاستعانة بالمترجمين .

وهنا ظهرت عقبة جديدة وهي ان الاساتذة كانـوا مثقفين لـدرجة عالية جداً وكان المتـرجمون متـوسطي المعـرفة او عـديميها فلم يكن يمكن التوفيق بين الجهتـين . وفوق ذلـك فان اللغـة التركيـة لا يمكن تطبيقهـا على التعابير الأوروبية العلميه بدون الاستعانة باللغتين العربية والفـارسية ولكن الحكومة التركية كـانت تدفـع لهم اجوراً بـاهظة سـواء افادوا او لم يفيدوا !

ولكن الامر الذي انقذ الموقف هـو قلة التلامـذة فقد كـان الصف يتـألف من تلميذ واحـد وهكذا يهـون على الاستـاذ الالماني التفـاهم معه باية وسيلة كانت .

ولا يمكنني ان اجحد ان وجود اولئك الاساتـذة خلق في الاستانـه حـركة اجتمـاعية استثنائية لم تكن تعرف قبل قـدومهم وعـلى كـل فـان الفـائـدة من وجـودهم كـانت عميقـة لتمثيلهم الـروايـات المنتخبـة من المسرح الالماني واقامة حفلات موسيقية عامـة والقاءِ محاضرات كثيـرة في مواضيع متنوعة .

سـارت الشؤون الماليـة في تركيـا اثناء الحـرب سيراً هـادئاً بسبب مساعدة الالمـان فانـه عندمـا كانت تشعـر الحكومـة التركيـة بالحـاجة الى المال كانت تطلب من المانيا ان تعقد لها قرضاً الى امد معلوم .

كانت المانيا تجيبها الى ذلـك بان تسمـح لها بـزيادة الاوراق المـالية المتـداولة في الاسـواق بشـرط ان تعـود فتسحبهـا بعـد انتهـاء الحـرب ، وكـانت المانيـا عازمـة عـلى استيفـاء قيمـة تلك الاوراق من الحلفـاء لـو انتصـرت عليهم في الحـرب ولكن الحظ خـانها في الاشهـر الاخيـرة فاخذت قيمة الورق تتدهور قليـلاً فقليلا واصبـح قسم كبير من سكـان تركيا مهددين بالمجاعة .

ولم تكن قلة المـواد الغـذائيـة متسببـة عن عــدم انتـاج الاراضي التـركية ولكن الحقيقـة هي ان المانيـا نفسها كـانت بحاجـة قصـوى الى تلك المـواد فكـانت تضـع يـدهـا عليهـا وتشحنهـا الى بـلادهـا دون ان تكترث للشعب التركي . وبذلك اصبحت الحالة في تـركيا اسـوأ منها في البلقان . واذا ذكرت انـا كلمة (الجـوع) في مقالي فـانما اعنيه واقصده تماما .

وكنت احـد الايام اتنـزه مـع صـديق لي في البسفـور عـلى قـارب صغير فرأينـا امام الكشـك الذي بنـاه السلطان عبد العـزيز عـلى الضفة اليمنى قارباً ملوكياً محاطاً بعدة قوارب فعلمنا انه يقل الامبـراطور شارل النمسـاوي مع زوجتـه زيتا وانهما قـدما الاستـانه بنـزهة بسيـطة لحضور حفلة شاي هناك .

وقد زار الامبراطور غليوم الاستانه للمـرة الثالثـة في خريف سنـة ١٩١٧ عنـدما كـان محمد الخـامس حياً امـا القصـد من زيـارتـه فكـان الاشراف على مد خط برلين بغداد فقط .

ومما يجدر ذكره ان العاهل الروسي اسكندر الثالث سأل البرنس بسمارك قديماً لماذا يظهر غليوم الثاني اهتماماً شديداً بتركيا ؟ وكان ذلك عند بدء اتجاه نظر المانيا الى الامبراطورية العثمانية . فاجاب البرنس بسمارك :

ـ ان السبب هو اقتصادي تجاري بحت لا دخل للسياسة فيه . . .

ولكن الايام عادت فاظهرت ان خط برلين ـ بغداد الحديدي لم يكن سوى مقدمة لاستعمار الدولة التركية .

* * *

وفي اواخر الحرب تمكن الانكليز بعد محاولات عديدة من اغراق الطراد برسلو في معركة بحرية وقعت في شرق البحر المتوسط .

وتعد تلك الموقعة من اسوأ المواقع البحرية في الحرب فقد غرق مع (برسلو) اكثر من ثلاثمائة جندي الماني جميعهم في ريعان الشباب . . واذكر انني رأيت كثيراً منهم في شوارع الاستانة قبل حدوث المعركة وقد احدث غرقهم رنة اسى في نفوس اهل الاستانة .

الفصل الثالث عشر

عندما اندلعت الحرب الكبرى كانت المرأة التركية لا تزال محصورة في (الحريم) ومقيدة بالحجاب شاكية من قوانين الطلاق القديمة ! فقد كان كافياً ان يقول الرجل لزوجته : « انت طالقة ثلاثاً » لكي تصبح منفصلة عنه حسب مقتضيات الشريعة .

ولكن تلك الشريعة ايضاً تحافظ على حقوق المرأة من وجهة اخرى فانها حللت لاي امرأة يزيد سنها عن الاربعة عشر عاماً ان تضع يدها على املاكها وجعلت الرجل يدفع المهر لها ولكنها جعلته ايضاً غير مسؤول عن ديون زوجته وهكذا تأمنت امتيازات الفريقين المالية .

ويقول الحكام ان تحجب المرأة ليس منصوصاً عليه شرعاً في القرآن ولكنه عادة اقتبسها الغزاة العرب من البيزنطيين ، ولكن هذا غير صحيح .

ويدعم التاريخ العربي هذا البرهان اذ انه من المثبوت ان كثيراً من النساء المسلمات كن يدرسن ويعلمن في جامعات الاندلس في عصر النهضة . ولكن في هذا الحين لم يكن من مناص للمرأة من قانون الحجاب ، فلا تكاد تبلغ الفتاة الرابعة عشر من سنها حتى

يضطرها اهلوها الى لبس الحجاب . بيد ان للمرأة بعض الحرية الداخلية في (الحريم) فان المرأة المسلمة ، اذا لم تكن من طبقة العامة ، لا يطلب منها ان تقوم باي الاعمال البيتية فهناك خدام وعبيد يشرفون على تلك الواجبات ، وهناك ايضاً مرضعات وممرضات يهتممن بشؤون الاطفال ويسمح احياناً لنساء الاشراف بان يصرفن الايام الصافية في الحدائق الغناء او ان يزرن صديقاتهن ولكنهن دائماً معرضات للمراقبة .

وكثيراً ما يتزوج التركي اكثر من امرأة واحدة لان الدين يسمح بذلك ، والعادة ان الموظف الغني يفتح لكل من زوجاته منزلاً خاصاً تعيش فيه منفصلة عن زميلاتها ، اما المتوسط الحال فانه يجبرهن على السكنى تحت سقف واحد .

* * *

كان حكم السلطان عبد الحميد الظالم سبباً في هرب الرجال المتنورين الى باريس وجنيف وبرلين . ولكنه لم يسمع ان احدى النساء تمكنت من ذلك وقد رويت لي قصة عن فتاتين تركيتين تمكنتا من اجتياز الحدود الى الخارج متنكرات بالملابس الأوروبية بيد انهما ما وصلتا الى بلغراد في بلغاريا حتى ثارت حولهما الشكوك فالقى عليهما القبض وارسل الخبر برقياً الى السلطان عبد الحميد فثار ثائره ودعا ابا الفتاتين ، وهو موظف حكومي من الدرجة العالية ، وسأله :

ـ الا تعلم ان ابنتيك قد هربتا وانهما الان في بلغراد ؟

فتظاهر الرجل بجهله ذلك واجاب :

ـ كلا لا اعلم ذلك يا صاحب الجلالة .

فحرك السلطان راسه بغضب وقال :

ـ ان الخبر صحيح فاذهب الى بلغراد وعد بهما سريعاً الى الاستانة .

وفعلاً فان الرجل سافر الى بلغراد ، ولما قابل الفتاتين انكر ان تكون لهما اي صلة قرابة به ، مع انهما ابنتاه ، وهكذا تمكنتا من متابعة السفر الى باريس والتمتع بالحرية المطلقة فيها .

* * *

ذكرنا آنفاً ان الدين الاسلامي يسمح للرجل باتخاذ عدة زوجات له ، ولذا كان يندر ان نرى امرأة لا تزال دون زواج ، ورغماً عن ذلك فقد كانت هناك بضع نساء يحترفن صناعات بسيطة كالخياطة والتجارة وبيع المصوغات وغيرها من ادوات الزينة الى النساء .

ولكن الحرب العظمى نفخت في المرأة روحاً استقلالية جديدة فشاطرت الرجل جهاده الحربي والعملي وكانت اشد الناس حماساً خالده اديب التي الهبت قلوب الجنود بخطبها النارية وشجعت النساء على التطوع للعمل مع جمعيتي الصليب الاحمر والهلال الاحمر . ولما احتل الانكليز الاستانة كان اسمها موجوداً في رأس قائمة المنفيين ولكنها تمكنت بعد جهود شديدة من الهرب والالتحاق مع زوجها بمصطفى كمال في الاناضول .

وكان اول الاعمال التي سمح للنساء بمعاطاتها فن التمريض فتهافتت آلاف منهن على التطوع ولا سيما وان القيام بذلك العمل كان يتطلب من المرأة ان تخرج من الحريم وان تخلع حجابها .

ولا شك في ان المرأة التركية كانت تفعل ذلك بكل رضى .

ومن المعلوم ان الحرب قد قضت على اكثر الشبان الاقوياء والرجال العاملين فجاءت المرأة واحتلت المناصب والاعمال التي كانوا يقومون بها .

واذكر انني دخلت في احد الايام ادارة البريد فذهلت عندما رأيت امرأة بين العمال لاول مرة في تاريخ تركيا ولكني بعد مدة قليلة اصدرت الحكومة امرها بتعيين اكثر من ثلاثمائة امرأة في ادارة البريد وحدها .

وتطورت الحالة قليلاً فقليلا فاصبحنا نرى النساء في المخازن والحوانيت مما ادى الى نزع الحجاب وتقصير الثياب .

وكثيراً ما كان البوليس ينبه المرأة الى ان فسطانها قصير مثلاً او ان حجابها رقيق . ولكن ذلك كله لم يحل دون استمرار المرأة على التحرر من تلك القيود . واخيراً اصدرت ادارة الشرطة بلاغاً رسمياً جاء فيه :

« بما ان اتخاذ الازياء العصرية قد اصبح شائعاً في الاستانة لذلك تعطى فرصة يومين للنساء المسلمات لكي يستبدلن الحجاب الرقيق بحجاب اكثف والملابس القصيرة بالملابس الطويلة » .

وما كاد يظهر هذا البلاغ حتى ثارت عاصفة من الاستياء بين نساء الموظفين والاشراف والوزراء وهددن بالاضراب عن العمل في المنازل اذا لم يسحب ذلك القرار . وبعد يومين صدر البلاغ التالي :

« تعلن ادارة الشرطة باسف ان البلاغ الماضي لم يخرج منها وانما اذاعه موظف ثانوي فيها بناء على طلب بعض العجائز . ولذا فليكن

معلوما ان ذلك القرار اصبح ملغى ! » .

وهكذا ارتفعت سلطة البوليس عن مسألة الملابس ، واصبحنا نرى النساء سافرات في الشوارع .

* * *

فتحت كليتنا ابوابها في شهر ايلول سنة ١٩١٦ وقد كان الاقبال عليها زائداً لعدة اسباب اوجهها ان المخاطر والاضطرابات السائدة في الشرق الادنى تدفع الآباء لان يرسلو بناتهم الى مكان امين كمعهدنا مثلا . وقبل الافتتاح بقليل انضمّ الى مدرستنا بضع معلمات جديدات جئن خصيصاً من اميركا لذلك الغرض بصحبة المستر « الكوس » السفير الجديد للولايات المتحدة في تركيا .

وكان يقطن عندنا في المدرسة القنصل العام الاميركي « افندات » لانه ارسل عائلته الى الولايات المتحدة خوفاً عليها من غوائل الحرب وبينما كنت اتحدث معه يوماً اذا به يقول :

ـ لماذا لا تقومين برحلة الى اميركا ؟ انه ليس من الصواب ان تنقطع صلة المدرسة بمجلس ادارتها الاعلى في الولايات المتحدة .

فاستحسنت اقتراحه وارسلت استشير امناء المجلس في الامر فلم يظهروا في جوابهم معارضة .

وعندئذ اخذت اتهيأ للسفر تاركة المدرسة تحت اشراف الدكتورة « لويزا واليس » التي عينت مكاني في منصب رئاسة المدرسة اثناء غيابي .

وقد كان السفر عسيراً جداً ولكن غير ممنوع فتمكنت من

الحصـول على الاوراق الـلازمـة لسفـري بعـد عشـرة ايـام من المجهـود المتواصل والزيارات المختلفة الكثيرة للدوائر الحكومية .

وكـانت اسهل الـطرق واقربهـا الى الولايـات المتحدة تتـطلب مني المرور في اراضي ست دول متحاربة . . ولا حاجـة للافصـاح عن حرج السفر في مثل تلك الظروف الاستثنائية .

وعـلى كل فـانني استـطعت ان انـال رخصـة بـالمـرور في المنـاطق البلغـارية وهي عبـارة عن رقعـة كبيـرة اختفى لـونها الاصـلي تحت آثـار الاختام الحمراء والخضراء .

وقـد تمكنت بواسـطتها من الـوصول حتى الحـدود الصربيـة حيث اصطدمت ببعض المصاعب فقد كان قطارنا يتوقف وقتاً طـويلاً عنـد كل محـطة وكنا نـرى آثار الحـرب والمعارك عـلى الطريق وكثيـراً ما كنـا نجد الخطوط الحـديـديـة ملويـة او مقتلعـة فنضـطر ان ننتـظر حتى يتم تصليحها .

* * *

وبعـد اجتياز النمسـا والمجر دخلنـا البلاد الالمـانيـة حيث تفـرض مـراقبة شـديدة عـلى الداخلين والخـارجين وفتق لي عنـدئـذ ان استعـين بالرخصة البلغارية فابرزتها للموظف الالماني قائلة :

ـ هـذه رخصـة من حليفتكم بلغـاريـا تخـولني المرور في اراضي حليفاتها

فتناولها من يـدي بكل احتـرام وتمعن بها طـويلاً ، ثم رفـع رأسه واحناه علامة القبول وقد عجبت في نفسي كيف سمح لي بـالمرور بـدون

تفتيشي مكتفياً .بالرخصة الذي لم يفهم منها شيئاً لانها مكتوبة بالبلغارية .

وقد حللت ببرلين في فندق ممتاز وكنت اعامل معاملة لطيفة حتى في الدوائر حيث ذهبت اطلب اذنا بمغادرة البلاد .

ولما انهيت مشاغلي تركت المانيا على القطار قاصدة كوبنهاغن عاصمة الدانمرك لابحر منها الى نيويورك وكنت اعلم ان التفتيش في مدينة ورغند الواقعة على حدود المانيا الشمالية دقيق لدرجة انهم يفحصون اذني المسافر وشعره وسقف حلقه .

ولما دخلنا محطتها ابرزت ايضاً الوثيقة البلغارية علها تنقذني هذه المرة من التفتيش فتناولها مني احد الموظفين الالمان الخمسة الذين قدموا لتفتيشي وتباحث مع رفاقه مدة عشر دقائق ثم غابوا قليلاً وعادوا فافهموني بكل لطف ان تلك الرخصة لا تشمل منطقتهم .

ولم ار بداً من الخضوع لعملية التفتيش التي طالت لدرجة ان القطار سبقني ولما اطمأنت قلوبهم من ناحيتي اعتذروا وتركوني ، ثم ركبت قطاراً آخر فوصلت متأخرة ليلاً الى كوبنهاغن وانا لا اعرف احداً فيها . والانكى انني لم اجد غرفة في الفندق فاضطررت للنوم على سرير نصب لي في الحمام .

وقد وقفت دولة الدانمرك على الحياد في الحرب العظمى ولذا كان جو عاصمتها هادئاً واحوالها عادية . واول ما استلفت انظاري فيها هو ان اكثر سائقي السيارات هم من الفتيات ، فثار في نفسي عندئذ شعور الاعجاب بامة سارت مثل ذلك الشوط البعيد في ميدان الرقي والتحرر .

ابحرت من كوبنهاغن على باخرة بطيئة في سيرها وقد شعرت برهبة ممزوجة بالالم والاسف عندما مررنا بالبقعة التي وقعت فيها معركة (جوتلاند) البحرية بين الاسطولين الالماني والانكليزي ثم بالبقعة التي اختفت فيها الغواصة التي كانت تقل اللورد كتشنر في طريقه الى روسيا . ثم عرجنا على مرفأ مدينة كريستيانيا الجميلة عاصمة المملكة الاسوجية .

مكثنا في اسوج بضع ساعات اقلعنا على اثرها جنوباً قاصدين جزائر اوركني في شمالي انكلترا وهنا وجدنا اننا دخلنا للمرة السادسة منطقة تخص احدى الدول المتحاربة فاضطررنا ان نخضع لفحص طويل قامت به عدة موظفات انكليزيات بامعان ثم قفلن عائدات من حيث اتين برفقة اثنان من الركاب اذ تبهن بانهما من الجواسيس .

ولم يقع خلال اجتيازنا للبحر الاطلانتيكي اي حادث مهم . ولما القت الباخرة مرساها في ميناء نيويورك رأيت مئات من الناس ينتظرون اقاربهم القادمين من ناحية البركان الأوروبي الثائر ! وهناك شعرت بالراحة والسلم يستوليان على عواطفي ولا عجب فقد عدت الى وطني ! . .

* * *

في اثناء غيابي في اميركا كانت شؤون الكلية بالاستانة تسير بصعوبة تامة ، وكانت المظاهر كلها تدل على ان الحرب واقعة بين الدولتين .

واخيراً وقع المحذور فاعلنت الولايات المتحدة الحرب على المانيا والنمسا في السادس من نيسان ١٩١٧ وبذلك انقطعت العلاقات

الرسمية مع تركيا ايضا وهكذا اغلقت السفارة الاميركية والغيت الهيئة القنصلية .

وقد تولت المفوضية الاسوجية الاشراف على مصالح الرعايا الاميركيين الباقين في تركيا رغماً عن ان اكثرهم عادوا الى الولايات المتحدة .

وخيرت المفوضية افراد عمدة الكلية بالبقاء او الرحيل فسافر منهم اربعة فقط بطريق سويسرا وبقي تسعة . وقد استعضنا وقتياً عن الاربعة المستقيلات بمعلمات وطنيات .

وكانت المعلمات والتلميذات يتساءلن عن موقف الحكومة من الكلية فتنبأ فريق منهن انها ستضع يدها على البنايات وتحولها الى مستشفى لا سيما وانها فكرت بذلك منذ ابتداء الحرب .

واخذ اصدقاء الكلية يختفون الواحد بعد الاخر ، وانصارها يزدادون قلقاً عن مصيرها وينظرون الى المستقبل بقلوب واجفة مما دعا العمدة لكي تتلف الاوراق المهمة وتفرغ الصناديق من محتوياتها استعداداً للهجوم المنتظر .

ولم يمض زمن قصير حتى جاءت فرقة من جنود الهلال الاحمر ووزعت جنودها عند مدخل المدرسة قائلة :

ـ اننا سنحتل المدرسة اليوم !

ولا تسل عن الخوف الذي اعترى التلميذات من جراء ذلك فاخذن يطلبن الحمالين لكي ينقلوا امتعتهن الى خارج المدرسة ، ولكن الجنود منعوا اخراج الفرش قائلين :

ـ اعيدوها الى مكانها ، فنحن بحاجة اليها لننام عليها هذه

الليلة فقط ! وفي ذلك الظرف الحرج بذلت المدرسة جهود الجبابرة لكي تنقذ نفسها . ثم خاطبت التلميذات التركيات ذويهن بالهاتف ، واستنجدت العمدة بالموظفين الاصدقاء والسفير البلغاري .

وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي انسحب الجنود المرابطون في ساحة المدرسة ولم يعودوا !

وقد شاعت على اثر ذلك عدة تعليلات اقربها للعقل هي ان الوزارة رغبت ان تبقي على المدرسة لتكون لها سنداً اذا انتهت الحرب مع اميركا على غير ما يرام . وعلى كل فقد كان للبلغاريات والتركيات اليد الطولى في الامر .

واخبرتني الدكتورة واليس بعد عودتي ان التلميذات التركيات اقسمن بانهن لن يتركن المدرسة الا على حراب الجنود !

* * *

ورأت الدكتورة واليس انه من الضروري ان اكون في تركيا في مثل هذا الظرف العصيب فطلبت من خالدة اديب ـ وهي احدى المتخرجات من كليتنا ـ ان تستأذن طلعت باشا لكي يسمح لي بالعودة ولما فاوضته بالامر اجابها :

ـ انبئيها برقياً ان تأتي الى سويسرا ، وهناك ارسل لها معلومات كافية كي تدخل سالمة الى تركيا .

وقد استلمت البرقية في اواخر اب فاسرعت بالسفر من نيويورك في ٣ ايلول على الباخرة (روشامبو) قاصدة بوردو ، رغماً من ان الاشاعات كانت تملأ اميركا باستحالة دخول أوروبا أو تركيا .

وكـان سفـرنـا في المحيط الاتلنتيكي هـادئـاً الى ان اقتـربنـا من الشـواطىء الفرنسيـة حيث كان خـطر الغواصـات في اعـلى درجـاتـه ، فـاصبحنا نسـير ليلاً والانـوار مطفـأة ولما اقتـربنا من البـر اصبح محـظراً علينا ان يشعل الواحد منا لفافة خوفـاً من ان يكون نـورها سبب غـرق الباخرة بطوربيد الغواصات الالمانية .

واخيراً وصلنا بـوردو ، ولكن الفرنسيـين منعوا نـزولي الى البر ولم اتمكن من ذلك الا بمساعدة القنصل العام (رفدال) صديقي القديم .

وفي اليـوم التالي ركبت القـطار قاصـدة سويسـرا فلما اقتـربت من حـدودها ادخلني المـوظفون الافـرنسيـون الى غـرفـة منفـردة وفحصـوني بـدقـة ، ولمـا لم يجـدوا معي شيئـاً يستـوجب الـريب اعـطوني الاوراق اللازمة وتركوني وشأني .

دخلت بـرن عاصمـة سويسـرا وانا عـالمة انني متى انهيت اشغـالي فيها سأتمكن من الرجوع الى تركيا والا اضطر للعودة الى اميـركا والبقـاء فيها ، وكان عـليَّ ان اذهب اولاً الى المفوضيـة الاميركيـة التي كان قـائماً بـاعمالهـا في ذلك الحـين مستر (الن دوليس) ففعلت . ولمـا طلبت منه ان يؤ شر على جواز سفري الى الاستانة ، حدجني بنظرة قاسية قائلا :

ـ ما هذا الجنون ؟

وظن انـه يتخلص مني اذا اعتذر بـانه يـود استشارة واشنطـن في المسألة . ولكني قلت له بان يفعل !

ولا تسل عن دهشته عندما اتاه الجواب من اميركا يأمره بـالتأشـير ومنذ ذلك الحين اصبحنا صديقين .

ولمـا انهيت المعاملة في المفـوضيـة الاميـركيـة ذهبت الى المفـوضيـة

التركية حسب ارشادات طلعت باشا وهناك قوبلت باحترام وقدم لي فؤاد سليم بك الجواز اللازم وكان عليَّ ان احصل على جواز نمساوي فقال لي اصدقائي انك لن تحصلين عليه ولكنني حصلت عليه بعد انتظار اسابيع بواسطة السفير البلغاري .

وكانت المواصلات مقطوعة يومئذ بين سويسرا وتركيا فلم اتمكن موافاة عمدة الكلية باخباري ولما وصلت الى فينا ازدادت الطريق وعورة لان الموظفين النمساويين كانوا كثيري الشكوك في كيفية حصولي على ذينك الجوازين التركي والبلغاري . .

ولم ار بدأً من الالتجاء الى السفارة التركية لان السفارة الاميركية كانت مغلقة فقابلني السفير وبادرني قائلا :

ـ أأنت مس باتريك ؟ ان شقيقتي قد تخرجت من كليتك . وانني باذل الجهد كي احصل لك على ما ترغبينه . وبعد بضعة ايام عاد ومعه الجواز المرغوب مؤشراً عليه من قبل الحكومة النمسوية ومع الجملة التالية مضافة اليه هذه الجملة :

« حاملة هذا الجواز آتية من بلاد الاعداء » .

كان القطار يجري على مهل عندما دخل محطة الاستانة ، وكم كان اسفي عظيما لما لم ارَ احداً ينتظرني فيها ، ولكني ما كدت اجتاز الباب الاول حتى اطل رأس من النافذة وكان القادم الدكتور توفيق وقد علت ثغره ابتسامة حلوة فاسرعت واذا بي اجد بقربه الدكتورة واليس وغيرها من اعضاء عمدة المدرسة ، فاخبروني ان الخروج من بناء المحطة عند وصول القطار اصبح ممنوعاً ولذلك لم يتمكنوا من انتظاري خارجاً .

ولن انسى في حياتي ساعة وصولي الى المدرسة لان ذكراها ستبقى معي ما دمت في قيد الحياة . فقد كانت التلميذات ينتظرن قدومي وفي ايديهم ضمم الازهار الجميلة اللون والرائحة . ولما اجتزنا البابا الخارجي رأيت امامي قوساً من الازهار اقامته التلميذات احتفاء بقدومي .

وما كدنا نمر تحت القوس ، حتى جذبت احداهن خيطاً متصلاً به فتساقطت ازهاره علينا ، وارتفعت اصوات الهتاف .

وفجأة رأيت علماً اميركياً يرتفع على السارية ثم يهبط حالاً خوفاً من ان يرى فيفرضون علينا جزاءً كبيرا .

ولا يسعني الا ان اثني على الدكتورة واليس لانها قادت المدرسة اثناء غيابي بحنكة ودراية فقد وجدت كل شيء حسنا .

هذا عن احوال الكلية ، واما عن المدينة فقد كانَ فيها البؤس والفقر والداء منتشر والتيفوس يتغلغل في احيائها والطعام نار لا يكفي لسد حاجات السكان الضرورية ، والخلاصة ان قلمي ليعجز عن وصف المشاهد الفظيعة التي رأيتها . وكانت كلما اقتربت نهاية الحرب ازدادت الاحوال صعوبة وخاصة شؤ ون المدرسة ولكننا لم نصل لدرجة استحال علينا الاستمرار معها على تسيير الكلية .

الفصل الرابع عشر

بدأنا سنتنا المدرسية لعام ١٩١٨ بعدد كبير من التلميذات وباستعداد تام عاجزات عن تذليل العقبات المعترضة ان كان من الارتفاع الفاحش في الاثمان او من مظاهر البؤس والفاقة المنتشرة في كل مكان .

وفجأة حدث تبدل غريب في الموقف السياسي في شهر ايلول ، فوقعت بلغاريا معاهدة السلم مع الحلفاء منفردة عن حليفاتها وتنازل ملكها فردينند عن العرش لابنه بوريس .

ورأت تركيا انها قد انقطعت جغرافياً عن النمسا والمانيا بسبب سقوط بلغاريا وفضلاً عن انها اصبحت في حالة تعجز معها عن مواصلة الحرب ، فلم تر بداً من ان تحذو حذو بلغاريا وبذلك قضي نهائياً على الحلم الالماني ! . .

وقد وقعت الهدنة بين تركيا والحلفاء قرب (مدروس) على ظهر الباخرة (اغاممنون) في اليوم الاخير من شهر تشرين الاول ١٩١٨ ولم تتولى توقيعها الوزارة القديمة بل وزارة جديدة مؤقتة تألفت برئاسة عزت باشا وهو شخص خامل الذكر لم يرفع لذلك المنصب الا ليضع توقيعه فقط ! . .

وكانت الخطوة الثانية ان يوافق البرلمان على تلك الاتفاقية ، فدعيت خاصة لكي احضر الجلسة وكانت تلك آخر جلسات ذلك البرلمان الذي انتخب على اساس دستور مدحت باشا .

كان أعضاؤه يبلغون سبعماية شخص بينهم كثيرون من النواب الذين صارت بلادهم في حوزة الحلفاء كنواب سوريا والعراق وكردستان ، وقد دخل هؤلاء على المجلس بوجوه تعلوها امارات الابتسامة والسرور والثقة بالنفس .

وكان طلعت باشا جالساً بقربي حيث ارى وجهه بوضوح وجلاء ، ولا ريب انه يستحيل على اي كان ان يعرف كنه الشعور الذي انتابه عندما اعلن المجلس موافقته على الهدنة باكثرية ١٢٦ صوتا .

وتلقى السلطان وحيد الدين اقتراحات عديدة بشأن حل المجلس لانه لم يكن يمثل البلاد التركية كما يجب فوافق على الحل وتألفت وزارة جديدة في الحال . وفي اثناء ذلك فر طلعت باشا سراً الى برلين وعاش فيها متخفياً الى ان اغتاله احد الارمن !

وهرب انور باشا بدوره الى روسيا وتطوع في جيشها الى ان اختفى من عالم الوجود دون ان تعرف كيفية وفاته .

* * *

يقول المثل « الانكليز يخسرون كل المعارك سوى المعركة الاخيرة » وهذا ما حدث حقيقة فان جيوش الحلفاء دخلت الاستانة ظافرة والقت دوارعهم مراسيها في مياه البسفور . وكانت الطيارات الحربية تحوم في جو الاستانة .

واذكر انه لما مرت جيوش الحلفاء من امام نوافذ كليتنا ظهرت على وجوه التلميذات امارات الاسى والاسف لانه لم يكن يحلم واحد منا بان ذلك الانكسار سيكون سبباً في تأسيس جمهورية تركية على دعائم ثابتة ، وعلى كل فان كثيرين من الاتراك سروا بذلك الاحتلال لانه قضى على النفوذ الالماني في بلادهم .

وصدرت اوامر الحلفاء بان يترك البلاد كل من يحمل الجنسية الالمانية فكنا نرى الالمان يغادرون الاستانة بوجوه مقطبة وبينهم كثيرون ممن ولدوا في تركيا ونشأوا فيها .

وقد نتجت عن هجرة الالمان ظروف سيئة جداً توقفت بسببها الاعمال فقد كانت المناجم وشركات الماء والكهرباء والترمواي والمعامل البخارية كلها تدار بايدي عمال المان تحت مناظرة اختصاصيين المان ايضاً .

ولم تعد تلك الامور الى مجراها الاصلي الا بعد انقضاء ثلاثة اشهر ونيف . ولا حاجة لي لان اسهب بوصف المدة التي مرت علينا اثناء الاحتلال الاجنبي فانها ملأى بالحوادث المؤلمة وكان الجوع يفتك فتكاً ذريعاً في الاستانة اذ يموت فيها اكثر من ثلاثين شخصاً يومياً .

واخذنا نشعر بامتداد النفوذ الانكليزي الى كل ناحية من نواحي الحكم وادارة الشؤون . ولا شك ان الانكليز قد انقذوا البلاد من الفوضى التي كانت ضاربة فيها ، ولكنهم دخلوا الاستانة واحتلوها كغزاة فاتحين ، وهذا ما لم يحتمله الوطنيون الاتراك ففر اكثرهم الى الاقاليم الداخلية ناقمين على كل ما هو اجنبي . . .

وعين اثناء ذلك الاميرال (مارك برستول) مفوض بسيط

للولايـات المتحدة في تـركيـا ثم رقي الى رتبـة وزيـر مفـوض وبقي حتى ١٩٢٧ .

وقد اتخذ الانكليز موقفاً حيادياً جافاً اما كليتنـا فلم يتعرضـوا لها بشيء سوى انهم طردوا ثلاث معلمات المانيات .

وبقينـا نتحمل عـذاب ذلك الكـابـوس المخيف حتى ٢٩ تشـرين الاول ١٩٢٣ وهـو اليوم الـذي اعلنت فيه الجمهـوريـة التـركيـة . ومن ذلك التاريـخ اخذ النفـوذ الانكليزي يتقلص تـدريجياً الى ان زال نهائياً وحل مكانه حكم وطني دستوري تحت رئاسة مصطفى كمال باشا .

* * *

انتهت الحـرب الكبرى ولكن روح الفتـح والتـوسـع بقيت تسـود افكار الدول المنتصرة . واخذت انقلابات سياسية واقتصادية واجتمـاعية تحدث بسرعة فائقة في أوروبا فإن الالمان عنـدما شعـروا بهول انـدحارهم بدأوا يطالبون بالحاح ان يتنازل غليوم عن العرش .

امـا هنـدنبـرغ نفسـه فلم يتـورع من ان يفهم الامبـراطـور ان الانسحاب هو الـطريق الوحيـدة المفتوحـة امامـه بعد ان اضـاع الشعب ثقته فيه .

ولم يـر غليوم بـداً من ذلك فحـزم حقائبـه وفـر الى هـولنـدا بعـد تـوقيع الهـدنـة بمـدة اسبـوعـين ، وبـذلـك قضي عـلى مـطامـع المـانيا الاستعمارية في الشرق الاقصى واختفت كلمات (بـرلين ـ بغـداد) من عالم الوجود .

واجتـاحت موجـة الديمـوقراطيـة اوربا الـوسطى فلمت الـولايات

الالمانية شعثها واعلنت الجمهورية فيها ونظمت النمسا حكومتها متخذة النظام الجمهوري شكلاً للحكم بعد ان اعلن المجلس الوطني الذي عقد في فينا انتهاء حكم آل هبسبورغ وابتداء الحكم الديموقراطي تحت راية الجمهورية .

واخذت روح وطنية ثائرة تتناقلها الرياح فقامت الدول والشعوب الصغيرة تطالب باستقلالها ولكن تلك الروح لم تؤثر قط في موقف الدول المحتلة للشرق الادنى لانها كانت عازمة منذ القديم على تقسيم تركيا بينها كغنيمة حربية .

وفي شتاء سنة ١٩٢٩ شرع بانتخابات جديدة وكان يظهر اثناء ذلك ان الحكام الوطنيين يديرون دفة الاحكام كما يشاؤ ون .

ولكن الحقيقة الناصعة هي ان السلطة العليا كانت بايدي الاجانب يتصرفون كما توحي اليهم مطامعهم الشخصية .

وفي الوقت الذي كانت توقع فيه الهدنة كانت شخصية نارية جديدة تجتذب الامة نحوها وتجمع حولها قوى البلاد السياسية والحربية ـ هي شخصية مصطفى كمال باشا رئيس الجمهورية الحالي .

ومصطفى كمال رجل لطيف المعشر يحب السهرات والاجتماعات ويتكلم اللغة الافرنسية بسهولة وفوق هذا كله قائد حربي مدرب . وهو ذو بشرة بيضاء وشعر اشقر وانف مستقيم .

ولد في سالونيك سنة ١٨٨٠ وبدأ حياته العسكرية في فرقة الفرسان التركية وعمره ٢٣ عاما وقد كان معتاداً على الخطابة امام الجماهير من صغره وكان رئيساً لاركان حرب محمود شفيق باشا عند دخوله الاستانة ظافراً سنة ١٩٠٩ على اثر اخماد الثورة الرجعية التي قام

بها انصار السلطان عبد الحميد .

وقد قام مصطفى كمال بخدمات حربية باهرة في حرب البلقان وضرب القوى الانكليزية في (انافورط) بالدردنيل اثناء الحرب فشتتها . ولذا كان اول ما بدأ حياته السياسية بطلاً في نظر الاتراك وبعد انتهاء الحرب عين ناظراً عاما في شرق الاناضول فاخذ يعمل على تنظيم الجيش التركي في الداخلية .

وفي تموز سنة ١٩١٩ اصدرت الحكومة العثمانية في الاستانة امراً بملاحقته لانه كان من الوطنيين ، واعتباره خارجاً عن قوانين الدولة ، فالتجأ الى السفارة الايطالية في الاستانه ثم فر منها الى الاناضول .

وكان الفصل الثاني من الرواية احتلال اليونان لازمير وما جر من علل وويل ولم تجرؤ اليونان على تلك الخطوة الا بموافقة انكلترا وفرنسا ، وكان يقصد منها مخادعة ايطاليا ، وعلى كل فلا ريب انها كانت السبب الاول الذي دعا الوطنيين الاتراك لان ينظموا صفوفهم ويوحدوا قواهم ضد الاجانب .

وقع الاتراك في مأزق حرج : الحرب مع اليونان والثورة على السلطان ، فعقدت لذلك عدة اجتماعات في ارضروم وسيفاس وانقره انتهت بالاتفاق على الميثاق الوطني الذي يجعل تركيا جمهورية وعاصمتها انقره .

ولم يدرك الحلفاء يومئذ اهمية تلك الحركة الوطنية فسكتوا عنها ، لا بل انهم سمحوا بان يوافق البرلمان التركي القديم الذي كان منعقداً يومئذ في الاستانة على الميثاق الوطني .

وفي اثناء ذلك تألف مجلس نيابي باسم (المجلس الوطني الكبير)

في انقره باعتبارها العاصمة الجديدة للجمهورية التركية ووافق اعضاؤه على محاربة السلطان محمد السادس وانتخاب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية .

ومنذ ذلك الحين بدأ التزاحم بين حكومتين في وطن واحد ، وطفق كل من الانكليز والفرنسيين والإيطاليين يحاولون تنفيذ معاهدة سيفر الموقعة في ٢٠ آب . والتي جعلت تركيا نهباً مقسما بينهم ، ولكنها على كل حال لم تنفذ قط .

ثم جاءتنا اخبار تدمير مدينة ازمير ، وبعد هذا الحادث اتعس حوادث الحرب اليونانية التركية فتلقيناها بحزن شديد لان ازمير كانت نقطة اثرية مهمة وكان ميناؤها النقطة التي ترتاح فيها المراكب المسافرة الى لسبوس واثينا ورودس وفلسطين ومصر .

وانتهت الحرب سنة ١٩٢٢ بانتصار الاتراك على اليونان وتنازل الملك قسطنطين عن العرش . وعقب ذلك ازدياد في الحركة الوطنية في انقره ، حتى ان المجلس الوطني الكبير اصدر قراراً في تشرين الثاني سنة ١٩٢٢ بالغاء الحكم الملكي ومحاكمة السلطان محمد وحيد الدين ووزرائه بالخيانة العظمى .

ولكن السلطان استنجد بانكلترا فساعدته على الهرب مع عائلته على مركب انكليزي الى مالطه . وبذلك انتهى حكم السلالة العثمانية في تركيا .

وقد كان للسلطان ابنة تدرس في مدرستنا فخيرها والدها قبل فراره بالسفر معه ففضلت البقاء حباً بان لا تكون حملاً ثقيلا على والدها الفار ، وهي تعمل اليوم كدليلة رسمية لزائري المدينة .

ووقعت معاهدة لوزان في تموز ١٩٢٣ ودخلت في طـور التنفيذ في ٦ آب ١٩٢٤ وانتهى الاحتـلال الاجنبي في تشـرين الاول من العـام نفسه . وكذلك تم الاتفاق عـلى تبادل السكـان بين اليونان وتركيـا بعد موافقة لجنة منتخبة من قبـل عصبة الامم كـان يرأسهـا نانسن الـرحالـة الاسـوجي الشهير فسـافر اكثر من مليون ونصف يـوناني من تـركيـا الى وطنهم وعـاد اكثر من اربعمـايـة الف تـركي الى وطنهم ايضـاً واعتـرف انني لمـا رأيت حالـة اللاجئين والمهاجـرين الارمن التعيسة تمنيت لـو ان الله ابقى نـانسن في القطب الشمـالي . ولكنني عدت فعـرفت انـه لـولا تلك الحكمـة لما كـان سكان الـدولتين متجـانسين ولثـارت بسبب ذلـك قلاقل يستغنى عنها .

ولمـا فر السلطان محمـد السادس من الاستـانة فصلت الجمهـورية الـدين عن السيـاسـة وعينت عبـد المجيـد خليفـة للمسلمـين وهـو ابن السلطان عبد العزيـز وكان ولي العهـد للسلطان السابق ، وقـد تشرفت بمعرفة السلطان الجديد شخصياً .

وبعد تسلمه الخلافة بقليل ارسل اليَّ دعوة لمقابلته فوجـدته رجـلاً ذكياً ديمقراطي النزهة ، وصرح لي بان لـه اهتمام خـاص بجامعتنـا لان فيها فتيات ينتمين الى عدة جنسيات !

ثم قدمت لنا المرطبات وانتهى حديثنا .

ونسيت وانـا في حضرة الخليفـة ان الزيـارات الملكية لا تنتهي الا باشارة من صاحب الجلالـة فنهضت لاذهب وعندئـذ لاحظت عـلى وجه الخليفـة علائم العجب فلم اعـر لذلـك اهتمامـاً وظننت انه لامـر اخـر وسرت الى الباب وطأطأت رأسي ثم انسحبت باحترام .

* * *

وفي اذار سنة ١٩٢٤ صدر قرار الغيت بموجبه الخلافة فتبلغه الخليفة مساء بصبر عجيب وفي الصباح استقل سيارته الخاصة مع ابنه وابنتيه يتبعه عدة سيارات تقل افراد عائلته وحوائجه الى سويسرا وهكذا نزل اخر خلفاء بني عثمان عند ارادة الشعب وتشتت شمل الامراء والاميرات واضطروا لان يعملوا كافراد عاديين ليحصلوا على قوتهم الضروري .

خاتمة الكتاب

وبعد قليل تبدلت الاحوال في تركيا تبدلاً فجائياً غير منتظر فاصبح الدين اعتقاداً شخصياً واغلقت المدارس الدينية واستعيض عنها بفرع خاص في الجامعة التركية . وكذلك انقلبت المحاكم الشرعية الى محاكم مدنية وتعدلت قوانين البلاد فاخذت الحكومة القانون الجزائي من ايطاليا والمدني من سويسرا والتجاري من المانيا ، واصبح الزواج مدنياً كما انه منع تعدد الزوجات .   وبعد مغادرة الخليفة للاستانة انتهت علاقتي الرسمية مع الكلية فقدمت استقالتي وعينت الدكتورة كاترين ادامس مكاني ورحلت الى اميركا حيث الفت هذا الكتاب .

الفهرس

مقدمة الناشر

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٥
المقدمة	٧
الفصل الأول :	١٥
الفصل الثاني	٢١
الفصل الثالث	٣٠
الفصل الرابع	٣٨
الفصل الخامس	٧٨
القسم الثاني ـ الفصل السادس	٩٧
الفصل السابع	١١٨
الفصل الثامن	١٣١
الفصل التاسع	١٤٠
الفصل العاشر	١٥٣
القسم الثالث ـ الفصل الحادي عشر	١٦١
الفصل الثاني عشر	١٧٥
الفصل الثالث عشر	١٨٣
الفصل الرابع عشر	١٩٦
خاتمة الكتاب	٢٠٤

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

طبع على مطابع
مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر
هاتف: ٨٣١٦٤٠ - ٨٠٠٦٢١ - ٢٧٣٦٣٦ - ٢٧٥٨٦٧
ص.ب: ١١/٥٠١٣ بيروت - لبنان

في ذمة التاريخ !

سلاطين بني عثمان الخمسة .. ما لهم وما عليهم .. أصابوا أم أخطأوا ...

ومن خلال دورهم في ما أدوه وما لعبوه في تاريخ الشرق ومما له صلة في تاريخ الأمة الإسلامية .

ومن خلال حياتهم الخاصة والعامة ومما سطروه في تاريخ تركيا الاجتماعي والسياسي والإسلامي تقيم نافذة نطل منها على تاريخ أمتنا العريق . وذلك من خلال مذكرات كاتبة امريكية عاشت الواقع التركي سياسياً واجتماعياً من خلال دورها كرئيسية لكلية استانبول للبنات ، وقامت بوضع كتابها هذا واختارت له موضوعاً : آخر « السلاطين العثمانيون الخمسة » الذين حكموا تركيا . وشرحت حياتهم شرحاً دقيقاً ففضحت حياتهم الخاصة وعلاقاتهم السرية بالأجانب . وتحدثت عن الذين كانوا يخشون منهم النور ويريدون البقاء في الظلام ، والذين كانوا يرغبون الخروج من الأوحال القذرة ولكن الظروف كانت تطمرهم في الأدران كلما حاولوا وكلما جاهدوا أن يرفعوا رؤوسهم ورؤوس مواطنيهم .

وجل الغاية من إعادة نشر هذا الكتاب في طبعة جديدة في هذه الفترة البعيدة عما حصل أيام السلاطين العثمانيين الخمسة هي إعادة تجديده كوثيقة من التاريخ التركي وتاريخ الشرق بصورة عامة .